جانيت ديلي

مزرعة الدموع

مكتبة زهران
١٥ شارع الشيخ محمد عبده خلف الجامع الأزهر - القاهرة
ت/٥١٤٢٩٥٥ - ٠١٢٣٣٧٨٦٤١٨

العنوان الأصلي لهذه الرواية بالانكليزية

NO QUARTER ASKED



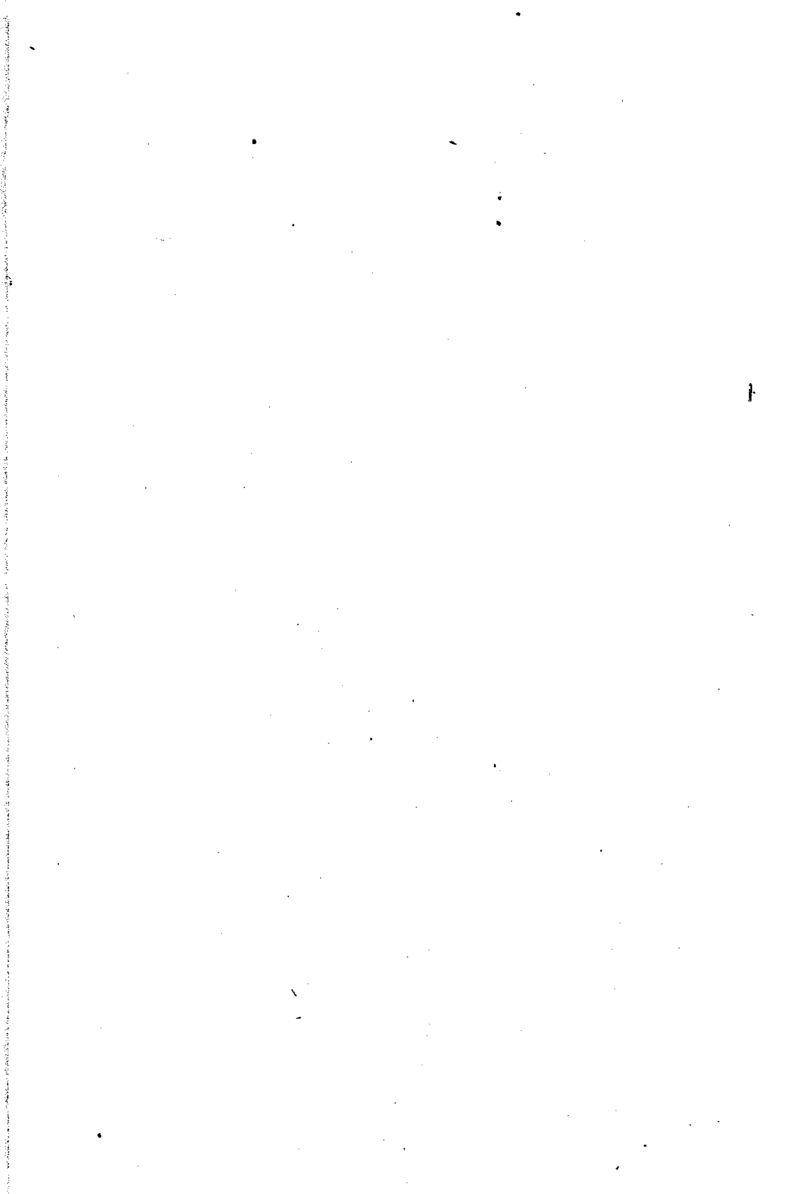
روايات عبير

منذ صدور هذه الروايات في العالم العربي، بعدما طالعها القراء عبر جهات الأرض الأربع، ونحن نتلقى التهاني والتشجيع ورسائل الشذى الطيبة من كل مكان.

لأن هذه الروايات بطاقات سفر ذهاباً فقط الى عالم النقاء العاطفي وصفاء الأحلام، ولأنها لمسة نسيم بالغة الرقة، ورفيقة المطالعة المفضلة لدى الملايين في العالم كله.

اربطوا حزام الأمان فالرجلة الى عالم الحب تبدأ في الصفحة التالية!

مزرعة الدموع ٣٨



١ ـ كوخ في تكساس

حدقت ستاسي من النافذة في حركة المرور السريعة بين المباني البنية والرمادية الكئيبة العالية وكان لونها يعكس الانقباض الذي أثقل كاهل الفتاة، وأفلتت منها تنهيدة خافتة وهي تترك الستارة لتستقر مكانها، وتستدير لمواجهة الرجل المسن الجالس خلف المكتب:

«سيد ميلز، كنت صديقاً لأبي وتستطيع أن تفهم أكثر من أي شخص آخر، لماذا ينبغي عليّ الرحيل وحدي لاعادة ترتيب أموري. ما الفرق بين أن يتم هذا في شقة في نيويورك أو كوخ في تكساس؟»

«سبب رغبتي في أن تعيدي التفكير في رحيلك هو كوني محامي والدك وأقرب أصدقائه».

«انا لا أحاول الهروب، ولكنني أحتاج لبعض الوقت لأرى إلى أين أنتمي».

«اسمعي يا ستاسي، أيّة فتاة مكانك كانت ستذهب إلى أوروبا أو الجزر. انت فتاة ثرية الآن، أستطيع أن أفهم أنك غير سعيدة بطريقة حصولك على المال، ولكنّ وفَاة شخص عزيز تتطّلب من الانسان التكيّف على الرغم من صعوبة ذلك. كنت دائماً مستقّلة إلى درجة العناد، ولذلك لا أرى سبباً لاصرارك على دفن نفسك في الريف».

نظرت ستاسي آدامز في تردّد إلى كارتر ميلز الأب وهي تتساءل كيف تجعله يفهم سبب اضطرارها للذهاب. لقد احترم أبوها هذا الرجل ووثق به كما لم يثق بأحد في حياته.

أبوها... وقفت الكلمة في حلقها، ونظرت إلى ثوبها الأزرق ويديها المعقودتين بشدّة في حجرها. توفيت والدتها بعد مولدها بفترة قصيرة، تاركة لزوجها الرحّالة مهمّة تربية طفلتهما بكل ما في هذه المهمة من غرابة ومشقة. أما جوشوا آدامز فقد رفض عروض الأصدقاء الكريمة بالعناية بستاسي وملأ حقيبة بلوازم الأطفال، وأخذ طفلته ذات العام الواحد في مهمته التالية في الخارج. وكانت الحياة بالنسبة إلى الأب والابنة، عبارة عن رحلة طويلة حول العالم، تتخللها فترات راحة قصيرة في نيويورك لالتقاط الأنفاس قبل السفرة أخرى، إلى حيث يبني الأب شهرته كمصوّر يعمل لحسابه.

ومرتّ الذكريات الحبيبة نابضة في ذهن ستاسي... عيد ميلادها السابع عشر منذ ثلاث سنوات، عندما هرّب والدها جرواً في أحد فنادق نيو أورليانز الفاخرة وأطلق على الجرو اسم كاجون تكريماً لمكان مولده في جزر الهند الغربية. ونما الجرو الشقي، بسرعة حتى أصبح كلباً من نوع الراعي الألماني، وتعلّق بسيدته تعلّقاً شديداً، وتنبأ أبوها بأن كاجون سيحميها كالملاك الحارس. ترى هل كان يعلم أنه على حق، لأن كاجون هو الذي سحب ستاسي وهي في غيبوبة، من حطام الطائرة المستأجرة قبل أن تشتعل فيها النيران. أما أبوها والطيار فلم يتمكّنا من الخروج.

حاولت أن تمنع دموعها المنهمرة، ورفعت عينيها لتلتقي بنظرة المحامي الحانية. وغامت عيناها البنيتان من الدموع الموشكة على السقوط، والتوت شفتاها في ابتسامة متألمة:

«إني أسحب كلامي يا ستاسي، ربما عاونك الرحيل على مواجهة مشاكلك».

ثم وقف كارتر ميلز واتجه إلى ستاسي قائلاً:

«ولكن تذكّري أنك مازلت شابة صغيرة في العشرين، وأمامك الدنيا كلّها. لم يكن ليرضي والدك أن يفوتك منها أي شيء خيراً كان أو شراً».

أمسكت ستاسي بيديه الممدودتين، ووقفت وثوبها الأنيق يظهر رشاقتها قائلة:

«كنت أعلم أنك ستفهم سبب إقدامي على هذا».

«هناك على الأقل شاب أعرفه لا يسرّه رحيلك ولا يمكن أن تلومي ابني لرغبته في

اصطحابك للأندية الراقية. لن تقولي أنك لا تنتمين إلى هذه الأماكن بعد الارث الذي ورثته عن والدك».

«أخشى أنني لم أتقبّل بعد كوني ثرية. فمن قبل كنت سعيدة لمجرد وجودي مع أبي، نسافر إلى حيث تأخذنا الرياح. ربما ورثت حبه للسفر. هناك مع كاجون وديابلو وأميال من الفضاء الشاسع أستطيع أن أحدّد مستقبلي».

«هل ستأخذين هذا الحصان المجنون أيضاً؟ كنت أرجو أن تبيعيه منذ مدة. إنك ترتكبين خطأ جسيماً باصطحابه».

« ديابلو ليس شريراً أو جامحاً كما تعتقد. إنه شديد الحساسية فقط وأنت تعلم أنني فارسة ممتازة، وما كان أبي ليسمح لي باقتنائه، لولا اعتقاده أنني أستطيع قيادته».

«أعرف هذا، ولكنني واثق أنه لم يخطر بباله أبداً أنك ستأخذين هذا الحصان معك إلى البراري».

«لا. أنا متأكدة أنّ والدي كان يأمل أن أستقر، وآخذ مكاني في المجتمع كما يقال. ولكني لست مستعدة لهذا بعد، ربما لا أستعد لهذا أبداً. من يدري! والآن ينبغي لي أن أذهب».

«ماذا ستفعلين بالشقة أثناء غيابك؟»

«قررّت أن أحتفظ بها مغلقة، بدلاً من أن أتنازل عنها».

«نحن دائماً نرحّب بك في بيتنا كماتعلمين، وإذا احتجت لأي شيء لا تتردّدي دقيقة واحدة في طلبه».

«لن أتردّد. وسيصحبني ابنك كارتر غداً للعشاء كآخر اتصال لي بالمدينة. فهو يعتقد أنني ذاهبة إلى مجاهل افريقيا المعتمة».

وابتسمت ستاسي وقد أثرّ فيها اهتمام المحامي وأضافت:

«أشكرك على كل ما فعلته من أجلي يا سيد ميلز».

استقلّت ستاسي المصعد الهابط ولاستغراقها في خططها للمستقبل لم تلحظ نظرات الاهتمام في عيون ركاب المصعد الآخرين. كانت تبدو لأول وهلة متوسطة الجمال، ولكن النظرة المتأنية، تلحظ شعرها البني اللامع، يحيط بوجهها البيضاوي، وعينيها البنيتين الداكنتين بأهدابهما الكثيفة، ولو أنّ الحزن كان

يظللها في هذه اللحظة، مما يضفي على مظهرها هالة مشرقة نضرة.

وصلت ستاسي إلى الشارع، حيث تركت سيارتها السبور الفاخرة، آخر هدايا والدها. كان يجب أن تفهم من هذه الهدية الثمينة أن والدها رجل ثري، وليس كما تظن يعتمد تماماً على ما يكسبه. فقد فوجئت باكتشاف أنها أصبحت ثرية بعد وفاته. ولم تكن تدري ماذا كانت تفعل لولا هذا الثراء، إذ أنها لم تتعلم تعليماً منتظماً على الرغم من معرفتها المتفرقة بكل شيء.

وصلت ستاسي للمبنى الذي تقطنه، واستقلت المصعد للطابق الخامس، وغمرتها الكآبة وهي تفتح الباب. استقبلها كلبها بفرحة غامرة، فقالت بابتسامة حزينة وهي تنظر لعيني الكلب المليئتين بالحب:

«كاجون أيها الوحش... هل افتقدتني؟ ماذا عساي أن أفعل لو لم تكن هنا؟»

أخرجها جرس التليفون من أفكارها فأجابت:

«نعم!»

وجاء صوت الرجل على الطرف الآخر:

«ستاسي! أنا كارتر قال لي أبي أنك خرجت قبل وصولي مباشرة».

«لقد تركت المكتب حوال الرابعة».

«كيف تسير أمورك كلها؟»

«بخير، كنت على وشك الانتهاء من حزم حقائبي لولا بعض الأشياء الصغيرة».

واضافت ضاحكة:

«وضعت بعض الفساتين إلى جانب ملابس الركوب. فأنا أنوي الحياة كما ينبغي في مدينة لرعاة البقر».

قال ساخراً:

«لن أعترض. طالما أنك لن تلتقي بشاب أسمر طويل من رعاة البقر، ثم تنطلقا على حصانه الأمين».

«لا تقلق، لم يعد رعاة البقر كسابق عهدهم، ففي آخر رحلة لنا في الغرب لم أصادف إلاّ رجالا في منتصف العمر، لوّحتهم الشمس ولهم أسر يعولونها.

«هل ستقودين سيارتك إلى هناك؟»

«سأذهب أنا وكاجون، أما ديابلو فسيأخذ القطار حتى بيكوس وهناك

أخذه ونواصل الرحلة إلى ماكلاود، وبما أن الكوخ على بعد ثلاثين ميلاً من هناك، فلن أكون بعيدة جداً عن المدينة».
«يسعدني أنني لن أذهب إلى هناك، فالعزلة تضايقني ولا أفهم كيف تستطيعين البقاء هناك لأكثر من أسبوع. ما الفرق بين جبل وآخر؟»
«ربما كنت على حق، ولكن عليّ أن أكتشف هذا بنفسي».
«لن أستطيع أن أثنيك عن عزمك، أليس كذلك؟ اسمعي، إن لديّ عملاً الليلة فلن أستطيع أن آتي إليك، ولكن موعدنا غداً مساء. في السابعة تماماً. موافقة؟»
«موافقة».
«اذاً. سأراك غداً».
«الى اللقاء يا كارتر».
شعرت ستاسي بالفراغ والوحدة بعد المكالمة، ولكنها لم تستسلم لأحزانها، وراحت تكمل حزم حقائبها.
في الليلة التالية كانت ستاسي تثبت قلادتها المرصّعة بالعقيق، عندما رنّ جرس الباب. ونظرت للمرة الأخيرة إلى المرآة. كان ثوبها بلون الخوخ مفتوحاً عند الرقبة على هيئة الرقم ٧، مما يبرز جمال لون بشرتها البرونزية التي لوّحتها الشمس، وجمال شعرها بأطرافه الذهبية والمصفف على الطريقة الافريقية. طلت شفتيها بطلاء لامع بلون الخوخ وارتسمت على وجهها ابتسامة راضية.
عندما فتحت الباب لكارتر كانت عيناها تومضان غبطة. وقالت:
«هل جعلتك تنتظر طويلاً؟»
أمسك الشاب الأشقر الطويل بيديها وعيناه الزرقاوان تحييانها ببريقهما الخاص:
«هل أقول لك ما تعرفينه بالفعل؟ ما كنت لأعترض على الانتظار أكثر من هذا، لو علمت بالمنظر الذي سأراه».
ثم وضع شالها على كتفيها قائلاً:
«هل نذهب؟ حجزت مائدة في الساعة الثامنة بنادي ميدو وود الريفي».
«رائع!»
أخذا يتحدثان طوال الطريق إلى سيارته حتى ركبا فصمتا لانشغال كارتر

بالطريق، نظرت ستاسي إليه... كان شاباً وسيماً بشعره البني الفاتح، وعينيه الزرقاوين الصافيتين. كان يكبرها بست سنوات وبدأ عمله كمحام بمكتب والده. إن كثيرين من معارفها يعتبرون كارتر عريساً مثالياً، ولكن لم تكن بينهما أية تصريحات بالحب، أو أية وعود. كانت ستاسي تبعث لكارتر بطاقات بريدية طريفة عندما كانت تصاحب والدها في أسفاره، وتتصل به عند عودتها، وكارتر يلتقي بفتيات أخريات في غيابها، ولكن ليس بانتظام كما كان يفعل مع ستاسي. وسعدت أسرتاهما بهذه العلاقة النامية، أملاً في أن تؤدي إلى الزواج.

ابتسمت ستاسي وهي تراقب يديه الماهرتين وهو يوقف السيارة في مكان الانتظار. لم تكن علاقتهما علاقة أخ بأخته، ولكنها لم تكن أيضاً علاقة عاطفية يدقّ لها قلباهما، كانا يستمتعان بوجودهما معاً في انتظار أن يأتي الحب يوماً ما، فيتزوجها كما كانت تعتقد، وبما أنهما متفقان فسيكون زواجاً سعيداً. ولكن ليس الآن. وفكّرت ستاسي: ثم إنني ما زلت ساذجة، لدرجة أني أتمنىّ حباً يحلقّ بي فوق الأرض حتى وإن كان هذا لا يحدث إلاّ في الأساطير.

قال كارتر ضاحكاً وهو يمسك بباب السيارة المفتوح حتى تخرج:

«أيتها الحالمة. ألن تخرجي من السيارة؟»

«آسفة لقد كنت في عالم آخر».

قال مبتسماً وهما يدخلان النادي:

«اذاً عودي منه، إن الليلة ليلتي، وأنوي أن أستغلّ هذه الفرصة إلى أقصى مدى».

أحاط خصرها بخفة، وهو يفتح لها باب النادي المزخرف. وطلب كارتر المشروبات. بينما أخذت ستاسي تنظر إلى الأثاث الفريد، حيث زينت الجدران بجلود الفهد والحمار الوحشي مما يوحي بجو الغابة. ونظرت ستاسي إلى كارتَر، فوجدت الكآبة بادية على وجهه، فعاتبته قائلة:

«لم هذه الكآبة؟ كنت أظن أننا نحتفل الليلة»

«آسف، كنت أفكر في الاجازة التي ستقومين بها. إن أبي ليس مسروراً بشأنها، ولا أنا أيضاً. وإذا حدث لك شيء في ذلك الكوخ المنعزل فستمر أسابيع قبل أن يكتشف هذا أحد».

«أرجوك، لا داعي لهذا الكلام الليلة. لقد قررت الذهاب، وهذا كل ما يمكن أن يقال. يبدو أن كل الناس يعرفون مصلحتي أفضل مني».

ألم يخطر ببالك أنهم على حق هذه المرة؟ تظنين أن باستطاعتك التغلب على أية مشكلة، لأنك سافرت حول العالم، ولكنك لا تملكين من الخبرة أكثر من أية فتاة ريفية. كل ما أراك والدك هو الدنيا من الجانب الأمين كما تراه عدسة المصور، وليست لديك أية فكرة عن الحياة بمفردك».

«لقد رأيت الحرب والمجاعة من وجهة نظره، أيقلّل هذا من تلك الحقائق! إنني أعرف معنى الحياة، وأعرف ما الذي سأفعله بحياتي، ولست بحاجة لمزيد من المناقشة».

«ألن تكفي عن عنادك وتستمعي لصوت العقل؟»

«قلت لك إن الموضوع منته»

قال بخشونة بينما الفرقة الموسيقية تشرع في العزف:

«إذاً فلنرقص»

أخذا يرقصان وهما واجمان. ولكن ستاسي ضحكت قائلة:

« كارتر... إنني آسفة. لم أكن أقصد أن أفقد أعصابي، أرجوك لندع الجدل جانباً الليلة».

ابتسم وقال:

«حسناً. سنعتبر الموضوع منتهياً ونستمتع بأمسيتنا معاً».

قدّم لهما العشاء، وبعد أن فرغا منه قالت ستاسي:

«كانت وجبة لذيذة».

«ولكن الصحبة أكثر لذة».

«أشكرك يا سيدي العزيز».

«أتودين البقاء هنا لنرقص أم نذهب لمكان آخر؟»

«أفضل البقاء هنا، فالجو الهادىء يروقني».

«وأنا أيضاً، لأني أريد أن أحدّثك في بعض الأمور».

«أرجوك لا تلق عليّ محاضرة أخرى عن رحلتي. لقد وعدتني بألا تناقش ذهابي إلى تكساس».

«وأنا أنوي أن أفي بوعدي. إن هذا الموضوع مختلف تماماً. لنذهب الآن للرقص».

اخذا يرقصان على نغمات الموسيقى البطيئة، ونظر إليها كارتر بابتسامة رقيقة قائلاً:

«هل تذكرين ما قاله والدي بعد جنازة والدك، أنك واحدة من عائلتنا؟»

قالت ستاسي وهي تبادله نظرته الجادة:

«نعم».

«وأنا أريد أن يكون هذا رسمياً، أريدك أن تصبحي زوجتي، لن أحاول منعك عن رحلتك، ولكن عندما تفكّرين في المستقبل دعي تفكيرك يشملني... ستاسي... أنا أهتمّ بك... أحبك وأريد أن أرعاك بقية عمري. لم نتكلم عن مستقبلنا من قبل وقد آن الأوان لهذا. كنا صغيرين. كان أمامي أن أنتهي من دراسة القانون، وكان أمامك أن تكبري وقد تمّ هذا الآن، فلنبدأ في التخطيط لبقية عمرنا».

« كارتر... لا أدري ماذا أقول، ولا أدري إذا كنت على استعداد للاستقرار، لا أدري!»

«لا تقولي شيئاً. أعلم أن كلامي يأتي بعد وفاة والدك بفترة وجيزة، ولا شك أنك مضطربة، فلن أطلب منك رداً الآن. عندما أرى أنك مستعدة سأعيد طلبي بالطريقة اللائقة، وحتى ذلك الحين أطلب منك فقط وأنت في جبال تكساس أن تتذكري حبي لك ورغبتي في أن أتزوجك».

فكّرت ستاسي في هذا العرض، كان يجب ألا يدهشها، ولكنها دهشت على الرغم من سابق تفكيرها في هذا الموضوع.

واستمرا في الرقص حتى انتهاء الأغنية وعادا لمائدتهما. قال كارتر:

«لقد ذكرت أنك ستشحنين ديابلو إلى تكساس. ألا تأخذين حصاني الرمادي؟ إنه أكثر هدوءاً من شيطانك الأحمر هذا».

قالت باسمة:

«أشكرك على هذا العرض ولكني لا أتوقع أن يسبب لي ديابلو مشاكل كثيرة. ثم إنه في الطريق إلى بيكوس الآن ولذا سألتزم بترتيباتي الأولى».

سألها:

«في أي وقت تزمعين الرحيل غداً؟»

«آمل أن أرحل ظهراً»

«إن الوقت الآن متأخر، ولا أريد أن أحرمك من راحتك. سيكون أمامك الكثير من التفكير الليلة. أو هكذا أتمنى».

لم يتحدثا كثيراً في الطريق لبيتها، وعندما وصلا نظر إليها كارتر قائلاً:

«لن أتمكن من المجيء غداً لوداعك، وأتمنى لك حظاً سعيداً الآن. سأتركك هنا يا ستاسي، عودي لبيتك سريعاً».

نظرت ستاسي للشاب النحيل القوي وهو يذهب وشعرت بفراغ وبرودة في قلبها. اتجهت للمصعد ثم دخلت شقتها بهدوء وهي تتساءل عن صحة قرارها بترك البيت والأصدقاء الوحيدين لها.

بعد ساعة غلبها النعاس وهي مصممة مرة أخرى على المضي في خطتها بالرحيل إلى تكساس.

٢ ـ جفاء اللقاء الأول

قرأت ستاسي علامة الطريق التي كتب عليها: ماكلاود ـ ١٠ أميال، ثم أحنت ظهرها، وفردت عضلاتها المتقلصة، فقد أثـرّت فيهـا قيادة السيارة لمدة يومين ونصف. ولكنها كادت أن تصل، نظرت في مرآة السيارة... لم يظهر الاجهاد إلا في عينيها، وكانت ثيابها المكوّنة من بنطلون زيتوني وقميص أصفر ليموني محتفظة برونقها. فيا سترتها المكملة للبنطلون في المقعد الخلفي إلى جوار كلبها النائم.

كان حصانها هادئاً في مقطورة خاصة ملحقة بالسيارة بعد أن أثار ضجـة عندما شحنته في بيكوس.

أبطأت ستاسي من سرعتها وهي تقترب من المدينـة وتستوعـب معالـم المنطقة، ووقفت عند محطة بنزين على مشارف المدينة. أشارت لكلبها أن يتبعها. أعجبت ستاسي بنظافة المكان على الرغم من قدم المبنى. وجاءها فتـى من المكتب وفي عينيه نظرة إعجاب لم تلحظها وسأل:

«هل أملأها يا آنسة؟»

أجابت مبتسمة للهجته الجنوبية الرقيقة:

«نعم من فضلك، وافحص تحت غطاء السيارة».

تركت ستاسي الكلب يلهو إلى جوار المحطة، ودخلت المكتب هرباً من لظى الشمس فوجدت رجلين بالداخل، أحدهما وهو الأكبر سناً، يرتدي ثياب العمال. أما الآخر فكان ظهره إليها، وكان يرتدي بنطلوناً أزرق وقميصاً ذا مربعات. كان

شعره داكناً يقترب من السواد تحت قبعته البنية التي بقعها العرق. وحجبت قامته الطويلة وعضلاته القوية ستاسي عن نظر العامل، إلى أن مشت جانباً إلى الطاولة حيث وضعت بعض الحلوى. وقال العامل:

«عن إذنك يا كورد. هل يمكنني معاونتك يا آنسة؟»

«نعم، أريد قطعة من هذه الشوكولاته».

«بالتأكيد. لا تظنيني متطفلاً يا آنستي، ولكن لكنتك تنم عن أنك لست من هذه المنطقة؟»

ضحكت ستاسي وقالت:

«لم أكن أعرف أن لديّ لكنة خاصة، ولكن هذه مسألة نسبية. إنني من نيو يورك وسأقضي الصيف هنا، هل يمكنك أن تدلني على عائلة تدعى نولان. فقد استأجرت كوخ الصيد الخاص بهم».

في هذه اللحظة استدار الرجل الثاني إلى ستاسي، ودهشت لنظرة العداء البادية في عينيه، وشعرت بالحيرة، وسمعته يودع العامل ويخرج إلى سيارته الجيب. ماذا فعلت لتستحق تعبير العداء في عينيه؟ حاولت التخلص من التفكير في نظرته، واستدارت للعامل الذي كان يخاطبها قائلة:

«آسفة. ماذا قلت؟»

«قلت إن آل نولان يديرون دكان البقالة في المدينة».

ثم وصف لها كيف تصل للدكان وشكرته.

دخل الفتى الذي تركت له سيارتها وقال:

«لقد وضعت أيضاً بعض الزيت. يالها من سيارة. أراهن أنها تترك باقي السيارات خلفها في الطريق».

قال الرجل الكبير:

«كفى يا بيللي لا شك أن الآنسة تقدر إعجابك بذوقها في السيارات».

دفعت ستاسي حسابها وضحكت قائلة:

«يجب أن أتصل فوراً بآل نولان وإلا سيحل الظلام قبل وصولي لمنزلي الجديد».

«اتبعي توجيهاتي ولن تضلي. إن موللي نولان تكون هناك دائماً بعد الظهر، وهي تعلم مكان زوجها».

صفرت ستاسي لكاجون وأشارت مودعة العاملين، وبدا لها أن أهل المنطقة ودودون، أو على الأقل اثنين منهم، لكنها لن تدع العداء الظاهر لرجل غريب يفسد أول زيارة لها للمدينة. ولو لم يكن كرهاً لاعتبرته رجلاً وسيماً، فشعره داكن وعيناه بنيتان وقامته طويلة، ولكنه تصرف كما لو كانت تحمل عدوى الطاعون. حقاً لم يكن هناك أي داع للتفكير في نظرته هذه، فربما لا تراه مرة أخرى. وشعرت ستاسي من ملامحه الواضحة، وخطوط فكيه، وذقنه المستقيم أنه رجل لا يستسلم أبداً.

وصلت ستاسي إلى دكان البقالة. أوقفت سيارتها. كان الطريق العام جذاباً، وكانت فيه صيدلية عند المنعطف يليها دكان البقالة، ثم مكتب البريد ثم متجر للملابس ومقهى، وفكّرت ستاسي: إنها ليست مدينة كبيرة ولكنها تكفي احتياجات مجتمع المزارع حولها.

دخلت الدكان فوجدت سيدة صغيرة الحجم، يبدو على ملامحها حنان الأمومة، في حوالى الأربعين من عمرها، تجلس خلف طاولة. كان شعرها رمادياً ويغطي قوامها البدين ثوب منزلي بسيط مما ذكر ستاسي بمطبخ يمتلىء برائحة الفطائر الطازجة. قالت لها ستاسي:

«معذرة، هل أنت سيدة نولان؟»

«نعم، أيمكنني مساعدتك؟»

«أنا ستاسي آدامز، وقد استأجرت كوخكم لهذا الصيف».

«طبعاً يا طفلتي! كان يجب أن أعرفك في الحال، فليس لدينا زوار كثيرون، لقد قلت فعلاً أنك ستصلين في أوائل شهر مايو ولكني نسيت، أعتقد أنك حريصة على الوصول للكوخ قبل حلول الظلام».

«نعم، فأنا أنوي قضاء الليلة هناك يا سيدة نولان».

«يا إلهي. ناديني بموللي والا ظننتك تخاطبين انسانة أخرى. سيصل زوجي فوراً ليصحبك. نظفنا الكوخ ولكنه ما زال قاحلاً. فالرجال لا يهتمون كما

تعلمين. فإذا وجدوا مكاناً للجلوس، وآخر لاعتاد الطعام لا يهمهم وجود ستائر على النوافذ أو مفرش على المائدة.

أجابت ستاسي وقد أدركت أن السيدة لاحظت ثيابها الأنيقة وظنت أنها تتوقع مسكناً فاخراً:

«أنا واثقة أن الكوخ مناسب لي. وأرجو ألا تكوني قد أجهدت نفسك من أجلي».

قال صوت خلف ستاسي:

«معذرة...»

استدارت فوجدت نفسها وجهاً لوجه مع الغريب الذي قابلته في محطة البنزين، وبدون أن تقصد رفعت عينيها لتلتقي بعينيه ولكنه لم يبد أنه عرفها.

قالت مولي نولان وهي تمد له يدها مبتسمة:

«إنني سعيدة لمجيئك يا كورد. أريدك أن تقابل آنسة ستاسي فلامنج. لقد استأجرت كوخ الصيد عند التل الملاصق لسلسلة الجبال الشرقية. ستاسي هذا هو كورد هاريس مالك الكوخ الرسمي، وتبعد مزرعته حوالي عشرة أميال عن الكوخ».

دهشت ستاسي لقاء الغريب مرة ثانية. وأجابت بأدب ثم رفعت عينيها فوجدت نفس نظرة العناد والسخرية في عينيه. وراح ينظر إلى وجهها ثم إلى بلوزتها الصفراء والبنطلون المكوي والحذاء الأنيق ثم عاد ينظر في سخرية إلى وجهها. شعرت ستاسي أن أناقة ثيابها أكثر من أن ترتدى في هذه البلاد المتشققة. أحست بالاحراج، وقد التهبت وجنتاها وأغضبها أن هذا الـ كورد هاريس استطاع أن يشعرها بأنها متصنعة بشكل رخيص، فدفعت ذقنها إلى الأمام في تحد.

وقال الرجل ورنة السخرية في صوته:

«أرجو ألا تجدي بلادنا فقيرة ومنعزلة بالنسبة لك».

«أنا واثقة من أنني سأستمتع بوجودي هنا. لقد أشعرني معظم الناس أنني في بلدي».

قالت السيدة نولان:

«فعلاً. إننا لا نرى الكثير من الشابات الجميلات مثلك هنا، وبمجرد أن يعرفوا أنك في الكوخ هذا الصيف سيدق شباننا طريقاً لبابك».

ابتسمت ستاسي قائلة:

«أشك في هذا، ولكن مجاملتك لي لطيفة».

وتدخل كورد قائلاً:

«ألا تخشين الحياة وحدك في كوخ مهجور؟ بعد عدة ليال من الوحدة ربما تهربين بصحبة احد شبابنا».

أجابت ستاسي وقد أغضبها استخفافه بها:

«هذا ممكن، ولكنه مستبعد، جئت الى هنا لأكون وحدي. إنني أنـوي يا سيد هاريس أن يكون لي أصدقاء ولكن لا أنوي الانخراط في المجتمع».

«أنوي! قلتها بلباقة، إنها تعطيك حرية أن تفعلي ما تشائين. لا يبدو عليك أنك تستطيعين الحياة في عزلة مدة كبيرة».

حاولت موللي أن تمنع الصدام بينهما فقالت:

« كورد، لا أعتقد أن هذا مجال الحكم على آنسة آدامز وخططها. والآن اعتذر عن سوء أدبك».

لمس قبعته بسخرية وقال:

«أعتذر إذا كان كلامي بلا أساس، أرجو أن تستمتعي بإقامتك هنا مهما طالت يا آنسة آدامز».

أومأ المزارع المتعجرف مودعاً السيدة نولان وأخذ مشترياته وخرج قبل أن تردّ عليه ستاسي، وقد بلغ بها الغضب حداً جعل الكلمات تخذلها. إنها لم تلتق أبداً بمثل هذا الرجل الوقح المتعجرف الساخر. واستدارت للمرأة المندهشة قائلة:

«من يظن نفسه هذا الرجل؟»

«لا تهتمي لكورد، إنه صريح في التعبير عن رأيه، ولكنه حقاً جذاب بالرغم من كل هذا الصخب».

«أتمنى لو أنه يعيش على بعد عشرة آلاف ميل وليس عشرة فقط، ماذا فعلت لأستحق هذا الهجوم؟»

«لا شيء يا عزيزتي بالطبع. ربما ذكرته بشخص آخر. أعتقد أنك تودين شراء بعض الحاجيات، سيكون زوجي هنا في أي وقت».

بدأت ستاسي في انتقاء حاجياتها وهي ترتجف غضباً وتفكر، ربما كان أقرب جيراني ولكني سأحرص على تجنبه منذ الآن، ولو أني أتمنى أن أرى بروده هذا يهتز ولو مرة واحدة.

جمعت ستاسي حاجياتها وعادت لمولي فوجدتها تتحدث مع رجل أصلع نحيل، فخمّنت أنه السيد نولان. سألتها مولي:

«حسناً يا عزيزتي هل وجدت كل ما تحتاجين؟»

ثم استدارت للرجل الواقف إلى جوارها قائلة:

«هذه آنسة آدامز يا هاري، وهذا زوجي وسيصحبك إلى الكوخ».

مدّت ستاسي يدها إلى الرجل وهي تقول:

«يسعدني لقاءك يا سيد نولان».

وسلّم عليها بحماسة قائلاً:

«قالت لي مولي أنك شابة جميلة ولكن لم تقل إلى هذا الحد. بالتأكيد ستضيئين مدينة رعاة البقر هذه، وأرجو أن يناسبك الكوخ فهو ليس أنيقاً».

«أنا واثقة أنه سيناسبني، فقد اعتدت الحياة الخشنة مع والدي».

سألتها مولي:

«هل سيلحق بك والدك؟»

«لا...لقد قتل في حادث طائرة منذ شهر».

وبدأت مولي تتكلّم:

«إنني جد آسفة. لم أقصد...»

وقاطعتها ستاسي:

«ما كنت لتعلمين».

ثم سألها نولان:

«ماذا عن والدتك؟ هل توافق على سفرك وحدك؟»

«لقد توفيت والدتي بعد ولادتي بمدة قصيرة، فأنا الآن وحيدة. ولكن لا تقلقوا عليّ

لوجودي وحدي، فمعي كلبي الراعي الألماني، وأنا واثقة أنه يستطيع التغلب على أي حيوان من ذوات الأربع بعضاليتي، والصفعة في القدمين أيضاً».

وضحكت ستاسي وهي تفكر في كورد هاريس.

«إن هذا النوع من الكلاب طيب، وسيرعاك حقاً».

وضعت حملها وهي تقول:

«أرجو ألا يضطر إلى هذا. حسناً يا سيد نولان إنني مستعدة للذهاب إذا كنت أنت مستعداً».

«أين أوقفت سيارتك؟».

«أمام الصيدلية».

«سألقاك بعد خمس دقائق بسيارتي الجيب، وتستطيعين أن تتبعيني».

ثم خرج فقالت مولي:

«إذا احتجت لأي شيء، أو شعرت بالوحدة، ما عليك إلا الحضور للمدينة، فأنا وزوجي يسعدنا وجودك معنا في أي وقت».

أثر فيها حنان المرأة واهتمامها فقالت:

«سأتذكر كلامك ولكني أريد أن أستمتع بالهدوء فترة».

«الناس هنا ودودون ويسعدهم مساعدتك. فلا تترددي في طلب المساعدة، إذا صادفتك أية مشكلة. إن الهدوء شيء جميل ولكن لا تنعزلي تماماً عن الناس، تذكري أننا نرحب بك دائماً ولا تخجلي من طلب المساعدة».

«لن أخجل. أشكرك مرة أخرى وسوف نلتقي ثانية».

وصلت إلى سيارتها ووضعت مشترياتها في الخلف ثم هدأت من روع كلبها وبحثت عن سيد نولان بدأ ديابلو يحدث جلبة في الساحة، فدخلت إليه وأثار الصلان رأسه لها ونفخ في وجهها، وأخذت تحدثه برقة لتهدئته وهو يحرك أذنيه لالتقاط كلماتها، ولكن عينيه ظلتا تتدحرجان في ضجر، ونظرت لأعلى فوجدت سيد نولان في سيارته، وخرجت من الساحة بينما خرج هو من سيارته لملاقاتها وسألها:

«هل أنت مستعدة للذهاب؟».

«نعم، كنت أتأكد من أن كل شيء على ما يرام في المقطورة، أخشى أن يكون حصاني سيئاً في السفر».

«هذا حصان برّاق للغاية. ما هي سلالته؟»

«غالباً عربية».

«أنا لا أميل لها فهي متقلبة، وأفضل حصاناً مستقراً في أي وقت. حسناً من الأفضل أن نذهب وسيكون من السهل أن تتبعيني، فالطريق ليس في حالة سيئة».

لم يكن من الصعب أن تتبعه. مرا ببعض المنازل ثم اتخذا طريقاً مرصوفاً بالحصى يتجه شمال المدينة، وبعد فترة دخلا طريقاً وسط التلال ثم الجبال، ثم مضيا في طريق جانبي صغير بعد حوالي عشرين ميلاً. وخافت ستاسي من التفكير فيما يمكن أن يحدث لسيارتها، داعية ألا تسقط في إحدى الحفر وهي تركز تفكيرها على مؤخرة السيارة الجيب المتأرجحة أمامها، ونظرت للمقطورة في المرآة وهي قلقة، سيكون حصانها عصبياً لأقصى درجة عند وصولهم الكوخ.

كانت غابات الصنوبر من الكثافة بحيث تحجب الرؤية على الجانبين، وأشعة الشمس القادمة تمر من خلال فتحات في الأشجار. وقلّت كثافة الأشجار عندما هبطت السيارة الجيب تلاً صغيراً. وعند وصولها لقمة التل رأت ستاسي مرجاً يانعاً يهدر خلاله جدول، ورأت على يسارها كوخاً صغيراً يحتضنه حائط أخدود جبلي، وإلى جانبه حظيرة ومبنى ملحق، وعندما نظرت إلى يمينها رأت المروج تنحدر من الجبال إلى النهيرات.

كان الوادي رائعاً أكثر من أية صورة رأتها في حياتها. وعندما وصلت ستاسي كان هاري نولان واقفاً إلى جوار شرفة الكوخ الخشبية.

وهتفت وهي تنظر للجبال:

«يا للجمال!»

«نعم. سأريك داخل الكوخ».

ابتسمت ستاسي وتبعت الرجل المتغضّن إلى الكوخ. كانت في الغرفة الرئيسية مدفأة مملوءة حطباً فوقها رأس غزال محنّط وإلى جوارها كمية كبيرة من

الحطب، وضمّت الغرفة أريكة واحدة وكرسياً هزازاً. أما المطبخ فكان مكوناً من بعض الخزائن المعدنية فوق حوض من الصيني، له حنفية بمضخة، ولحسن الحظ وجدت ستاسي موقد غاز. وفي وسط المطبخ كانت هناك مائدة وكرسيان. ورأت لمسة مولي نولان في المفرش والستائر الحمراء، وربما كانت المرأة الحنونة مسؤولة عن وجود الوسائد على الأريكة والبطانية المصنوعة من شعر الخيل. وشرح لها هاري نولان كيفية إضاءة مصابيح الغاز، ثم أراها غرفة النوم وقد ملأ الغرفة الصغيرة سرير كبير ذو أربعة أعمدة عليه لحاف بألوان مختلفة، وخمّنت ستاسي أنه من عند آل نولان. وكان في الغرفة أيضاً خزانة صغيرة ومكان لتعليق ثيابها خلف الباب. ابتسمت ستاسي في بهجة قائلة:

«إن هذا رائع. لا أستطيع التفكير في شيء ينقصه».

لمعت عينا هاري لحماستها وقال:

«يسعدني أنه يلائمك وستسعد زوجتي أيضاً لهذا، والآن سأساعدك في إدخال حصانك للحظيرة إن شئت».

قبلت ستاسي معونته، وقادت سيارتها بحيث جعلت ظهر المقطورة نحو باب الحظيرة الذي فتحه نولان. ثم نزلت من السيارة ودخلت الحظيرة الخالية إلى جانب الشاحنة حيث كان حصانها المتبرّم. أخذ الحصان يسحب الحبل الذي يمسك به في قلق بدون أن يعطي ستاسي فرصة لتخليصه، وحاولت ان تهدئه ولكن ثورته ازدادت حتى فك عقدة الحبل. وبمجرد أن وجد نفسه حراً شبّ للخلف جاذباً الفتاة معه إلى خارج الشاحنة. وومض بياض عينيه، متوعداً وهو يرقص حتى بلغ أرض الحظيرة. وتركته ستاسي بسرعة ليركض حول الحظيرة.

أخذ الحصان العربي يدور حول الحظيرة في حذر وعرفه الأصفر وذيله يشقان الريح. ثم انتبه لوجود الرجل الغريب، فهاجمه إلاّ أن الرجل قفز من أمامه برشاقة مدهشة. وقال هاري:

«هل يفعل هذا كثيراً؟»

قالت معتذرة:

«لحسن الحظ لا. إنه يثور مرة كل حين بدون استفزاز ظاهر».

نظر هاري إلى قوامها النحيل وقال:

«كيف تسيطرين عليه؟ إنه يستطيع أن يمشي فوقك كما لو كنت هواء».

«يبدو أن بيننا نوعاً من التفاهم، ولو أني أحياناً أعتقد أنه لا يكاد يحتملني».

ثم غيّرت الموضوع وسألت:

«هل توجد طرق كثيرة أصلها على صهوة الحصان؟»

«كثيرة جداً. فمعظم الطرق تؤدي إلى أعماق الجبال أو الوادي، وبعضها يتفرع، للدائرة ».

قال ذلك وهو يشير للغرب. فردّت وهي تظلل عينيها من الشمس:

«أين تقع، الدائرة هـ ، بالتحديد؟»

سألت، لأنها كانت تنوي تجنّب هذا المكان بالذات.

«هذا الكوخ يقع على أرض كورد، ونحن نستأجره ونستخدمه للصيد. أما بيت المزرعة فيقع على بعد تسعة أو عشرة أميال من هنا. أرضه شاسعة ويديرها بيد من حديد، ولكن رجاله لا يعترضون لأنهم يعرفون موقعهم منه. إنه يدفع رواتب جيدة ويتوقع عملا جيداً في المقابل».

كان هذا مطابقاً لفكرة ستاسي عنه. ربما كان يتفقد العمل وفي يده سوط .

قال الرجل المسن:

«قالت لي مولي إنك التقيت به في المحل. بالطبع تعلمين أنه أعزب»

لم تجب ستاسي بل نظرت لحصانها وهو يأكل، وفكرت: أية امرأة تستطيع تحمله؟

استرسل في كلامه متجاهلا نظرة الضجر في عيني الفتاة:

«منذ حوال ست سنوات ظننا أنه وقع، ولكن الفتاة فضّلت أحد رجال البترول. لم يكن يحب تلك الفتاة فقد كانت تظن نفسها أفضل من أهل المنطقة. إنه أحسن حالاً بدونها».

أعجبت ستاسي في قرارة نفسها بالفتاة ألتي استطاعت أن تردّ راعي البقر المتعجرف على عقبيه.

«أصلح بيت جدته من أجلها، وأنفق عليه مبلغاً كبيراً من المال، وهو يعيش هناك

الآن وحده مع مديّرة منزله».

دخل هاري سيارته وقال:

«عليّ الاسراع حتى أصل بيتي قبل حلول الظلام، وإذا احتجت أي شيء بلّغينا»

«سأفعل يا سيد نولان. أشكرك على كل ما فعلته من أجلي وأقدّر معونتك».

وشدّت على يده بمودة.

وقفت أمام كوخها، ترقب رحيل سيارة الجيب حتى اختفت وغلفتها الوحدة. وجاء كلبها من ورائها، ودفع أنفه في يديها فركعت إلى جانبه تداعب شعره بخشونة وابتسمت قائلة:

«لست وحدي... أليس كذلك؟ طالما أنك معي، هيا نعدّ بعض الطعام لنأكله».

٣ ـ لا... لن نتفاهم

مضى يومان منذ وصولها. قضت اليوم الأول في إخراج حاجياتها من الحقائب وترتيبها. وكان عليها أيضاً أن تنظف السيارة والمقطورة. وفي المساء ركبت حصانها للترييض في المرج، حتى تعوّده على المناخ الجديد. أما اليوم الثاني فقضته في استكشاف الجبال الشرقية.

وقد خلبت المناظر الطبيعية لبها. لم تقطع هذه المسافة أبداً من قبل، بدون أن تلتقي بأية علامة للمدينة، فيا عدا بعض قطعان الماشية في الوادي. ومن العجب أن الأمسيات مرت بسرعة بالنسبة للفتاة. فهي تجلس في الشرفة حتى يختفي الضوء، بعد أن تعدّ طعامها وتطعم الحصان والكلب.

ولأول مرة منذ أسابيع تشعر ستاسي بالسكينة بين الطبيعة الصّافية في الوادي حتى اختفى قلقها وحزنها. لم يعد هناك شيء يهم إلاّ أن تحيا... كانت على صواب عندما عزلت نفسها عن بقية الناس. ولكن جزءاً منها لم يكن يريد الذهاب بالرغم من أنه كان عليها أن تفعل ذلك.

وفي الليلة السابقة كانت قد كتبت رسالة إلى كلارتر تخبره أنها وصلت بسلام وبدأت في الاستقرار. وفي هذا الصباح كانت تنوي أن تركب حصانها بحثاً عن صندوق بريد في إحدى المزارع، حتى لا تضطر إلى الذهاب للمدينة لارسال الرسالة. ولم تلحظ أية صناديق بريد عند مجيئها، ربما بسبب تركيزها على الطريق.

دخلت الحظيرة وأخذت اللجام ثم اقتربت من الحصان الأحمر الذي بدأ يتراجع

أمامها. وتجاهلت علامات الغضب البادية عليه، وقالت وهي تقترب منه:
«حسناً يا ديابلو، لا تكن صعب المنال، الصباح أجمل من أن أضيعه في السيطرة عليك».

وقف الحصان متضايقاً وهي تكلمه برقة. مدّت يدها له ومدّ هو أنفه إليها بتردّد، ثم نفخ برقة في يدها واستسلم لها وهي تلجمه وتسرجه. كان ردّ فعله للسرج يختلف في كل مرة، فتارة يقبله بهدوء، وتارة يتصرف كحصان صغير لم ير سرجاً من قبل. وصفرت لكاجون، ليتبعها وركبت الحصان في اتجاه الطريق العمومي.

كانت أشعة الشمس تسقط على ظهر الحصان النحاسي وتبرز بياض رداء الراكبة. وأخذ كاجون في فحص علامات الطريق، بينما انطلقت ستاسي على الحصان في اتجاه المدينة. وعندما أبطأت من سرعة الحصان لم يعجبه هذا فحاول التخلص من اللجام. وصارعت للسيطرة عليه حتى فاتها النظر إلى المناظر الطبيعية حولها، بينما الحصان يشبّ للخلف لاحظت أن السرج ينزلق من على ظهره.

أوقفت الحصان، ونزلت. ولكن الحصان هاج وأخذ يضرب برجليه مانعاً ستاسي من الاقتراب منه، وبينما كانت منهمكة في كبحه لم تلحظ اقتراب سيارة منها، فالتفتت ولكن الحصان مر بجانبها فأسرعت تشدّ اللجام.

أثارت ضجة السيارة ثائرة الحصان أكثر حتى استحالت السيطرة عليه. حاولت ستاسي منع ديابلو من الانفلات وكانت تعلم أنها لن تستطيع الامساك به أبداً إذا هرب في هذا الفضاء الواسع أمامها.

ونظرت ستاسي بطرف عينها فعرفت الرجل الأسمر، ذا القوام الفارع الذي خرج من السيارة واتجه إليها، إنه كورد هاريس من بين كل الناس وآخر شخص تود رؤيته الآن.

قال بصوت خفيض:
«يبدو أنك تواجهين بعض المشاكل يا آنسة آدامز؟»

قالت ستاسي في تهكّم وهي تتنفس بصعوبة بسبب مجهود الامساك بالحصان:
«يا لها من ملاحظة ذكية!»

أخذ الرجل منها اللجام وأشار لها أن تتراجع للخلف. جدّد ديابلو معركته من أجل الحرية عندما رأى الرجل الغريب، ولكنه لم يستطع مقاومة كورد الذي أمسك اللجام بقوة حتى استقر الحصان على أرجله الأربع، وبدأ يهدأ.

نظرت ستاسي لكتفي الرجل العريضتين بعضلاتهما القوية تحت سترته، وراقبته وهو يمر بيده على عنق الحصان. لم تكن تتصوّر أن هناك من يستطيع أن ينتصر في صراع مع هذا الرجل القوي. في هذه اللحظة استدار لها كورد، والتقت عيناهما. وعلى الرغم من محاولتها لم تستطع أن تمنع نفسها من النظر في عينيه الداكنتين اللتين تشعان ناراً عميقة وغريبة. وكسر هو حدة الصمت قائلاً:

«أنصحك بشراء حصان آخر، فمن الصعب على فتاة صغيرة مثلك السيطرة على مثل هذا الحصان»

«أشكرك ولكني لم أطلب نصيحتك ولا معاونتك».

«لم يبد لي أنك تقومين بمهمتك بمهارة، ولكن ربما كنت مخطئاً».

قالت وهي تشير إلى سيارته الأنيقة ذات اللون الذهبي والبني:

«كنت على وشك السيطرة عليه، لولا مجيئك في هذا الشيء المزعج الذي زاد من ثورته».

«لم أكن أدري أنني يجب أن أستأذنك عندما أسوق سيارتي في طريق عام. إذا كان حصانك يخاف السيارات لا تركبيه، حيث يتحتم أن يلتقي بها».

وشعرت أنه أدى لها صنيعاً، ولم تتصرف بلباقة فقالت بمرارة:

«آسفة. كان يجب ألا أقول هذا، إنه عصبي المزاج في بعض الأحيان مثل هذه المرة».

«أرجو ألا يحدث هذا كثيراً، وإلاّ وجدت جثتك في مكان ما بين الجبال، عندما يلقي بك ثانية».

«إنه لم يلق بي. أنا التي نزلت لأصلح وضع السرج».

نظر إلى السرج في عبوس قائلاً:

«أعتذر لمهارتك كفارسة، ظننت أنك افترقت عنه بطريقة أكثر مأساوية».

ضحكت وقالت:

«لا، ولو أن هذا قد حدث مرة أو مرتين».

أخذت تلاطف الحصان بينما راح كورد يصلح السرج، ثم استدار لمواجهة ستاسي وشعرت بنظرته واستدارت لتلتقي بها، ولكنه أدار رأسه بسرعة قبل أن ترى تعبير عينيه. وعندما نظر إليها مرة أخرى لم ينم وجهه عن أفكاره فأشاحت بوجهها فسألها:

«هل كنت تتجهين لمكان معين؟»

«كنت أبحث عن صندوق بريد».

«صندوق بريد! وأين ظننت أنك تجدين هذا الصندوق؟»

وعادت إليها كراهيتها لهذا الرجل المتعجرف فدافعت عن نفسها قائلة:

«كنت أقصد صندوق بريد خاص بإحدى المزارع، حيث يسلم رجل البريد الرسائل ويأخذها».

«آسف لتخليصك من وهمك يا آنسة آدامز، ولكن لا يوجد صندوق بريد من هنا إلى المدينة. لقد نسيت أن هذه البلاد ينقصها الكماليات التي يعتبرها أهل المدن ضروريات».

قالت بعصبية:

«لم أكن أعرف ذلك. ثم إني لا أعتقد أنه لطيف منك أن تحط من شأن إنسان بسبب جهله بأمر ما».

وواجه غضبها وتحديها بهدوء قائلاً:

«إنني لا أحط من شأنك، بل أريد أن أنصحك بأنك سترتاحين أكثر إذا عدت إلى حيث تنتمين».

«سيد هاريس، لا أظن أن انتمائي أو عدم انتمائي من شأنك، والأفضل لك أن تبتعد عن طريقي حتى أنال شرف وداعك».

رمقها بغضب وأوشك أن يتكلم، ولكنه أغلق فمه. أما ستاسي فاصرّت على تحديها بالرغم من شعورها بالندم على كلماتها المتسرعة. وقفا يرمقان بعضهما وفجأة أخذها المزارع بين ذراعيه. أمسك بها بقوة قائلاً بشراسة:

«اسمحي لي أن أعاونك في طريقك».

وأذهلها تصرفه حتى أنها لم تحاول أن تقاومه، بينما أخذ قلبها ينبض بشدة، وأدركت أنها تلعب بالنار بتحديها لهذا الرجل. ووضعها بلا مجهود على سرج

الحصان ورمى لها حبل اللجام. فأمسكت به ونظرت إلى عينيه المتوهجتين.

وقال باستهزاء:

«هذا ما أردت. أليس كذلك؟»

ردّت عليه بعد أن استعادت هدوءها:

«كما قلت من قبل يا سيد هاريس، أنا لم أطلب مساعدتك».

«إن الناس هنا لا يطلبون أي شيء. إنهم إذا أرادوا شيئاً يفعلونه».

أحس ديابلو بالتوتر بينهما وأخذ يتراقص. لم تجب عليه ستيلي لاعتقادها بأن أي شيء تقوله سيزيد من حدة الموقف. ولم تشأ أن تثير غضبه مرة أخرى لخشيتها من العواقب. واستجمعت رباطة جأشها بقدر الامكان وأدارت الحصان حول قوامه المهيب، وشعرت بعينيه تنظران لها وهي تعود بالحصان من حيث أتت. لقد كواها شعورها بالمذلة، ولكن كبرياءها منعتها من الاسراع في انسحابها.

منعت نفسها بصعوبة من النظر إلى الخلف، ثم سمعت باب السيارة يقفل والمحرك يدار فأسرعت بدون توقف حتى وصلت للكوخ. وتحوّل شعورها بالهوان إلى غضب جارف. بأي حق يعاملها هكذا؟ كان يتصرف كما لو كان من حقه أن يملي عليها ما تفعل، وأزاحت سرج الحصان بأهمال غير معهود، ثم جلست في الشرفة وهي ممتعضة. واقشعر بدنها عندما تذكّرت ما حدث. لو أنها قلوحته، أو حتى شدّت شعره الداكن أو خدشت وجهه! إنها لن تسمح لنفسها أن تضعف أمامه مرة أخرى، وأقسمت أن تقول له رأيها فيه بصراحة عندما يلتقيان مرة أخرى.

لم تهدأ كبرياؤها الجريحة، على الرغم من جمال الطبيعة حولها. كان الوقت ظهراً ولكنها فقدت شهيتها للطعام فأخذت ثوب البحر وذهبت للجدول القريب من الكوخ.

غطست في الماء وكاجون ينتظرها ويحرسها في ظل شجرة قريبة. وبعد حوالي ساعة خرجت من الماء وجلست مسترخية إلى جوار كلبها. هدأت أعصابها بعد مجهود السباحة، ولكن كراهيتها للمزارع المتعجرف بقيت كما هي. وفكّرت في العودة لنيويورك ولكنها تذكّرت نصيحة كورد هاريس بالعودة فلم تشأ أن

تعطيه ما أراد. ووقفت قائلة:

«سوف نبقى يا كاجون. وأكثر من ذلك سوف نستمتع، لن نتجنب مزرعة سيد هاريس حتى لو لم يعجبه هذا. وغداً سأذهب الى المدينة لأرسل الرسالة قبل أن يبعث كارتر بفرقة للبحث عنا».

عادت للكوخ وقد ارتفعت روحها المعنوية، وعلت وجهها إمارات الرضى. كانت متأكدة من أنها لن تدع كورد هاريس يتغلب عليها في أية مواجهة مقبلة بينهما.

وفي الصباح التالي تأخرت ستاسي في نومها فأيقظها كاجون. أرتدت ثيابها وأعدّت قهوتها. وأسرعت بأطعام الكلب والحصان، وأمرت الكلب بالبقاء في الكوخ. ثم استقلّت سيارتها الجاكوار إلى الطريق العام.

أسرعت في طريقها للمدينة، ولكن هذه المرة استطاعت أن تتأمل المناظر حولها. بدت الجبال الحجرية العالية، كما لو كانت تحاول الوصول من البراري إلى السماء، بينما تغير لون قممها إلى الرمادي الداكن، مبرزة ألوان السهول الخضراء إلى أسفل. كان المنظر يسلب الألباب، بينما وزعت الأشجار بين الفينة والفينة كما لو كانت علامات تعجب في الأفق.

مرّت ستاسي بالمكان الذي التقت فيه بكورد هاريس بالأمس، فأسرعت لرغبتها في نسيان ذلك الحدث. ولكن روحها المعنوية هبطت فتجاهلت المناظر الطبيعية، وركّزت على الطريق. كان من الصعب أن تنسى نظرة عينيه القاهرة تنفذ إليها بإمعان وهي على ظهر الحصان.

بعد نصف ساعة وصلت ستاسي الى مدينة ماكلاود. كانت الشوارع هادئة من المارة. فأوقفت السيارة أمام مكتب البريد ثم دخلت، وحيّت الموظف. وضعت رسالتها في صندوق البريد، وأوشكت أن تخرج لكنها عادت للموظف قائلة:

«معذرة، هل هناك أية رسائل لستاسي أدامز؟»

«أنت الآنسة التي استأجرت كوخ نولان؟ نعم كان لك رسالة ولكني أعطيتها لكورد ليوصلها لك، ألم تقابليه؟ قال إنه يعرفك، وأنك جارته».

دهشت ستاسي وقالت:

«أعطيته رسالتي؟ كان يعلم أنني سأتي للمدينة».

قال الرجل المسن:

«ربما نسي، وربما أحضرها لك اليوم، فالناس هنا جيران طيبون».

حاولت التغلب على غضبها وقالت:

«من فضلك احتفظ ببريدي مستقبلاً حتى آتي لأخذه بنفسي».

قال وهو ينظر إليها بتساؤل:

«أجل يا آنستي».

شكرته بهدوء وخرجت ووقفت وترددت، إذ كان من الذوق أن تذهب للسيدة نولان وتشكرها على مجهودها الزائد لاعداد الكوخ.

دخلت محل البقالة فوجدت موللي تتحدث مع شابة حمراء الشعر معها طفلان نشيطان يجران ذيل ثوبها. ابتسمت لها السيدة نولان ابتسامة عريضة، والتفتت لها أيضاً الشابة مبتسمة ابتسامة مرحبة مثل موللي التي قالت وهي تمسك بيدي ستاسي:

« ستاسي. كنت أتساءل عن أحوالك؟ قال لي كورد أمس أنه التقى بك ويعتقد أنك بخير».

عضت شفتها حتى لا تعلق تعليقاً لاذعاً عن كورد وقالت:

«نعم، إنني بخير وأحب الكوخ. قال لي السيد نولان عن مجهودك لوضع اللمسة الأنثوية في الكوخ، وأريد أن أشكرك».

«لا تشكريني فقط اشكري ابنتي أيضاً».

وأشارت موللي للشابة الواقفة بجوارها وأكملت حديثها:

«يسعدني أنك جئت لأنني كنت أتطلع للقائكما. ماري هذه هي ستاسي آدامز. وهذه هي ابنتي ماري بوكانان».

ابتسمت الشابة ومدّت يدها لستاسي قائلة:

«إنني جد مسرورة للقائك أخيراً. لم يكن هناك حديث لأمي إلاّ عن هذه الشابة الجميلة التي تسكن وحدها في الكوخ، ولكنها لم تعطك حقك».

«أشكرك، لقد أشعرتني والدتك أنني في بيتي».

ابتسمت ماري لأمها مداعبة وقالت:

مستقل أمي دائماً كالدجاجة الأم التي ترعى الصغار، سواء كانوا كتاكيتها أم كتاكيت غيرها. ولا بدّ أنك حزرت أن هذين القديين هما طفلاي، هذا جيف وهذا دوغال».

ركعت ستاسي لتسلّم على الصبيين.

قال جيف وهو يتأمل شعرها البني المتساقط حول وجهها البيضاوي الباسم:

«إنك جميلة جداً، تكادين أن تكوني أجمل من أمي».

ضحكت ستاسي وشكرته، ونظرت ماري إلى ابنها الأكبر بغمز وابتسمت قائلة:

«لقد أسرته إن ذوقه جميل مثل والده».

قالت مولي:

«بالطبع، ولا تنسي هذا أبداً».

قالت ماري:

«أمي دائماً تذكرني بتوفيقي في زواجي كلّه من الممكن أن أنسى ذلك. هل أنت في عجلة من أمرك؟ ألا تأتين لمنزلي لتناول القهوة».

استجابت ستاسي لصداقة السيدة الجذابة:

«سيكون هذا رائعاً. إن سيارتي واقفة أمام...».

«هذا حسن، سرنا إلى هنا والآن سنعود راكبين. إننا نسكن قريباً من هنا».

قالت مولي:

«أسرعا كلاكما إذاً، حتى أستطيع أن أعود إلى عملي. اعتني بالولدين ولا تدعيهما يأكلان كل الحلوى التي أعطيتها لهما».

أخذت ماري ستاسي إلى منزلها الجميل المبني على طراز بيوت المزارع. وخرج الولدان رغماً عنهما من السيارة، وفتحت ماري باب المنزل وانتظرت أن تسبقها ستاسي ثم قالت ماري:

«لقد أثارهما ركوب سيارتك وسيتذكران هذا لمدة طويلة».

تبعتها ستاسي إلى المطبخ الكبير قائلة:

«أنا أيضاً قد استمتعت. فأنا أحب الأطفال».

«لن أقول لك انتظري حتى يكون لك أطفال لأني أحب أطفالي ولا أبدلها بالدنيا وما فيها. أكاد أجن من الأمهات اللواتي يتذمرن من أولادهن».

جلست ستاسي إلى المائدة قائلة:

«إنني أفهم قصدك ولو أنني قليلة الخبرة بالأطفال».

«قولي لي هل هناك من ينتظرك في بلدتك؟»

تذكّرت ستاسي كارتر ميلز فقالت:

«تقريباً».

قالت ماري:

«تقريباً! هل تقصدين أنه لم يعرض الزواج بعد، وقد جئت لتشعريه بأنه يفتقدك؟»

ثم أحضرت القهوة وجلست إلى المائدة وسألت:

«بحليب أم بسكر؟»

أجابت ستاسي:

«لا. بل أريد قهوة سادة. لقد عرض عليّ الزواج قبل رحيلي ولكنني لست واثقة من أني أريد الزواج الآن».

«هل تحبينه؟»

«أعتقد هذا. أنا لم أخرج مع شاب سواه، ونحن نعرف بعضنا بعضاً جيداً لدرجة...»

«أفهم قصدك. لم تريدي أن تتسرعي في قرارك خاصة بعد فقد والدك».

تنهّدت ستاسي وقالت:

«ربما يكون ذلك من الأسباب».

شعرت ماري أن ستاسي في حيرة فقالت:

«ربما عاونك بعدك عنه أن تعرفي إلى أي حد تهتمين به. لحسن الحظ لم يكن لديّ أي شك في شعوري نحو بيل. إنه طبيب المدينة وقد شعرت لحظة أن جاء إلى المدينة وتسلّم عيادة الدكتور جيبون، انه الرجل الذي أريد أن أتزوجه. كنت في الثانية والعشرين، وكنت أعرف العديد من الشبان».

«إني أتساءل إذا كانت هذه هي مشكلتي. فقد كنت أسافر مع أبي في مهامه، فلم

أبق في مكان واحد مدة تسمح لي بمقابلة شبان في مثل سني، وعند عودتي كان كارتر دائماً هناك. أعترف أنني افتتنت بأحد الصحافيين الذين عملوا مع والدي».

ضحكت ماري قائلة:

«أعتقد أن كل فتاة تمر بهذا. كان لي مثل هذا الشعور لكورد هاريس، كنت أطارده في كل مكان».

«كورد هاريس؟»

«نعم. لقد وقعت كل فتاة في المنطقة تحت تأثير سحره، في وقت من الأوقات».

وعلّقت ستاسي:

«هذا الرجل عدو المرأة، لا أتصوّر أن يكون مهذباً مع أي شخص».

«أؤكد لك أنه ليس عدواً للمرأة. إنه يشعر بالمرارة بعد تصرّف ليديا مارشال السخيف معه، ولكنها مسألة وقت حتى تأتي فتاة ما، وتحطّم الدرع الذي وضعه حول نفسه، وستفهمين عن أي شيء أتكلّم. عندما يطلق العنان لجاذبيته، فإنه لا يقاوم».

«إنك تنظرين إلى فتاة تستطيع مقاومة سحره. إنه بلا أدنى شك أكثر عجرفة وحقارة من أي شخص قابلته».

أخفت ماري ابتسامتها بصعوبة وقالت:

«أرى أنه قد ترك فيك تأثيراً واضحاً. أعتقد أنك تسرّعت في الحكم عليه. حتى إذا تجاهلت وسامته الشديدة، وقوامه الفارع ستجدين فيه كل متطلّبات الزوج والأب الفاضل. وإذا لم يكفك هذا فهو يملك أكبر مزرعة هنا ويكسب منها كثيراً».

«هذا حسن، ولكني أرثي للمرأة التي ستتزوجه. لقد تسرّع في حكمه عليّ، وأنا لن أتسامح وأدير خدي الآخر ليلطمه».

قالت ماري وهي متحيرة:

«لا بدّ أن الشرر يتطاير من عينيك عندما تلتقيان. وهذا غريب، لقد ظننت أنكما ستتفاهمان...»

«لا، إننا لن نتفاهم».

ولكن ستاسي لم تستطع أن تقص على الفتاة المتفهمة حادث الأمس. فقد كان شعورها بالهوان أقوى من أن تتكلّم عنه.

ودّعت الأسرة الصديقة بعد الظهيرة، ووعدت بزيارتهم عندما تأتي للمدينة.

وصلت ستاسي للكوخ في أقل من ساعة حيث حيّاها كاجون، وهو يهز ذيله بشدة ودخلا معاً للكوخ وهما سعيدان. وبينما تعد ستاسي العشاء لاحظت وجود رسالة على المائدة التقطتها، ووجدت مظروفاً تحتها. وقرأت الرسالة:

«آسف لأنني لم أجدك. تجرّأت واحضرت لك بريدك.

ك. هـ.»

فمزّقت الرسالة وألقت بها في المدفأة، وهي تقول بصوت عال:

«يا لأعصاب الرجل. آسف لأنني لم أجدك. أما أنا فلست آسفة».

وبعد تناول طعامها أخذت قهوتها الى الشرفة، وقرأت رسالة كارتر والضوء يخبو.

٤ ـ رجل لكل الفصول

ظهر خيال الحصان والراكبة وسط شمس بعد الظهيرة، وقفز الحصان عندما مرّت في طريقه سحلية، ولكنه استجاب لكلمات راكبته الهادئة. واندفع الكلب كاجون من النهر عائداً إلى سيدته.

نادت ستاسي الكلب مسرعة بالحصان وعلى شفتيها ابتسامة، وفي رأيها أنه لم يكن هناك ما هو أجمل من هذه الأرض القفر، وأسعدها أنها تحدت أخيراً حدود الدائرة هـ وكانت المناظر عجيبة بجمالها البدائي. فأوقفت الحصان بجوار بعض الأشجار ونزلت لتتأمل المنظر أمامها.

خلعت قبعتها ونفضت الغبار عن بلوزتها البيضاء. وكانت تستكشف المكان منذ الصباح، ولكنها كانت مبتهجة بروعة المنطقة بالرغم من عضلاتها المرهقة. نظرت إلى ساعتها فعرفت أن عليها العودة للكوخ مباشرة حتى تصل قبل الغروب. فربما ضلت الطريق إذا حل الظلام.

وتذكّرت رسالة كارتر التي تسلّمتها بالأمس. كانت تعلم أنه ما كان ليتعجّل عودتها لو كان معها يستمتع بكل هذا الجمال. ولكن يجب عليها أن تعود فلا تستطيع أن تنعزل عن العالم إلى الأبد لقد أوحى لها جمال الطبيعة الخشن بهذا. فقررت أن تعود بعد أسبوعين أو ثلاثة، ستكون هذه إجازتها. وكانت واثقة أن هذه رغبة أبيها. وسوف تحصل على عمل ما ربما في مكتب سفريات.

والزواج؟ لم تكن مستعدة له. إن كارتر يهمها كثيراً ولا يرضيها أن تتمسك بفرصة الهرب التي قدمها لها. كانت ستاسي تريد أن تهب كل قلبها لزوجها

وأسرتها، إذا هي تزوّجت. وتمنّت أن يفهم كلارتر أنها تريد أن تستجمع شتاتها قبل أن يكوّنا حياتهما معاً.

انتعش الحصان من فترة الراحة في المروج فانطلق، وخفّفت ستاسي من قبضتها على العنان، وتبعهما كاجون. نظرت ستاسي نظرة أخيرة للوراء.

وفي تلك اللحظة سمعت صوت حية ذات أجراس وسط الشجيرات. وقبل أن تلتفت صرخ ديابلو وشبّ عالياً في الهواء. وفاق رعبه كل حدود، واستدار وألقى بالراكبة من على ظهره بينما فرّ هارباً.

سقطت ستاسي على كتفيها، واصطدم رأسها بصخرة. شل الألم جسدها ولكنها حاولت مقاومة الاغماء بشجاعة. فاستندت إلى كوعها ورأت ديابلو يركض وسط المروج. ثم تبيّنت كاجون وهو يعدو إليها قبل أن تستسلم لظلمة الاغماء.

تجهّمت ستاسي وهي تستدير نحو مصدر الصوت، ووجدت نفسها في غرفة غريبة فقالت وهي خائفة:

«أين أنا؟ أبي أهو!»

ثم أغمضت عينيها وقالت:

«إني أتذكر الآن. لقد وقعت...»

حذّرها الطبيب قائلاً:

«لا تحاولي الكلام. كانت سقطة سيئة، ولكنك ستكونين بخير. أنا دكتور بوكانان زوج ماري».

«هل ماري هنا؟»

«لا. إنك في الدائرة هـ . لقد وجدك كورد هاريس وأحضرك لمزرعته. إنك مدينة له بالكثير».

هتفت ستاسي وهي تحاول ترك السرير:

«لا. لا أستطيع البقاء هنا. لا أستطيع».

أوقف الطبيب حركتها برقة قائلاً:

«اسمعي يا آنسة. إنك تحتاجين للراحة، وأنسب مكان لك الآن هو هذا السرير».

نظرت إليه بتوسل، ورجته أن يغيّر رأيه والدموع في عينيها. أما هو فأصرّ

على بقائها. نظرت إلى الباب فوجدت كورد يسده. لم تدر منذ متى كان واقفاً ينظر إليها في شراسة.

وشهقت قائلة:

«لماذا... لماذا وجدتني أنت بالذات؟»

جاء رده لاذعاً:

«أؤكد لك أنني لم أكن أبحث عنك. لقد وجدت حصانك يجري وحده فعدت في الطريق الذي جاء منه».

وقاطعه الطبيب قائلاً:

«يكفي هذا القدر من الكلام ويحسن أن تستريحي».

لم يكن لديها القوة لتقاوم الطبيب، أو مضيفها غير المرغوب فيه. فأشاحت بوجهها عنهما واستسلمت لآلامها وشعورها بالاحباط . التقت نظرتا الرجلين. نظرة المزارع متحدّية صامدة، ونظرة الطبيب باحثة متسائلة.

وأخذ الطبيب معداته قائلاً:

«أعتقد أننا يجب أن نتركها ترتاح في هدوء».

استيقظت ستاسي في المساء، وأخذت تتأمّل الغرفة باهتمام، وهي راقدة في السرير. كانت غرفة النوم بأثاثها الأسباني الثقيل، وألوانها الجريئة المحدّدة تنم عن ذوق رجل، كان عليها نفس طابع شخصية كورد هاريس الصارمة. وأبرزت ألواح الخشب المصفوفة على السقف، بياض طلاء الغرفة بينما زادت ألوان الستائر وغطاء السرير الحمراء والبرتقالية من خشونة طابع المكان.

وجلست ستاسي في السرير وهي تقاوم الدوار الذي صاحب حركتها، ونظرت لثيابها فصدمت عندما رأت أنها ترتذي قميص نوم. كيف ومتى بدّلت ثيابها؟ من الذي عاونها في هذا؟ واحمرّ وجهها خشية أن يكون المزارع قد قام بالمهمة. هذا القميص يخصها، كيف حصل عليه؟ هل بعث بمن يحضر أشياءها، ولكنه لن يجرؤ الى ذلك!

جاءها صوت خفيف من الباب:

«حسناً. لقد عدت إلينا، ظننت أنك ستنامين طوال الليل».

رفعت عينيها لوجه الزائر غير المتوقع، والحمرة تعلو وجنتيها وتلعثمت قائلة:

«كم الساعة الآن؟»

جلس إلى جانب السرير وهو ينظر إليها بتمعن:

«بعد الثانية!»

وسألها بدون أن يحمل صوته أي أثر لسخريته المعهودة:

«كيف تشعرين؟»

«أفضل. أريد أن أشكرك على كل ما فعلت. إنني...»

«لا داعي للشكر. أعتبر نفسي محظوظاً إذ رأيت حصانك. أكره أن أفكّر كم من الوقت كان يمكن أن ينقضي قبل أن يجدك أحد. دعيني أعدّل من وضع الوسائد».

كان صوته رقيقاً خفيضاً فأثّر في قلبها تأثيراً غريباً.

سمحت له ستاسي وهي خجلة أن يضيف وسادة وراء رأسها. شعرت بقربه فنظرت إلى وجهه بملامحه المحددة، وفمه الحازم، ولكنها رفضت أن تنظر لعينيه العميقتين. وشمّت رائحة عطره الذي كانت تتذكّره منذ لقائهما في الطريق. كان من الصعب أن تتجاهله. وكانت تخشى أن يسمع دقات قلبها، ولعنت تأثيره عليها. جلس وابتسم كما لو كان يدرك حرجها منه الذي يظهر عن حمرة وجنتيها، وعينيها المطرقتين. قال وصوته يغيّر نبرته الرقيقة إلى نبرة موضوعية:

«ربما كان علينا أن نبدأ بداية جديدة يا ستاسي. لقد بدأنا بداية سيئة. الطبيب يرى أنه من الأفضل أن تبقي هنا حتى تشفي. وبما أن هذا وضع مؤقت فسيكون من السهل علينا تجاهل مشاعرنا الشخصية».

أدهشها إقراره الصريح بالعداء فنظرت إليه، وهو يتأملها، وقالت:

«حسناً هل نحن صديقان؟»

مدّت له يدها بتردّد، فاحتواها في راحته الكبيرة، وشعرت أنه أطال بقاءها في يده أكثر من اللازم، ومع ذلك ضايقها تركه لها فجأة وقد قطّب وجهه كعادته... وقف ونظر إليها فقهرها طول قامته وتفوقه عليها.

قال وهو يتحرك إلى طرف السرير:

«أعتقد أنك تفضّلين تناول الطعام على سماع حديثي. سأبعث لك بماريا ومعها الحساء والشاي. على فكرة كلبك بالخارج، وحصانك في إحدى حظائرنا. لقد تجرأت وأحضرت بعض أشيائك من الكوخ. أرجو ألا تمانعي.

قالت وقد أدهشتها الوداعة البادية في صوته:

«لا».

قال وعيناه تومضان:

«حسناً. ربما هذا يشغل بالك. إن ماريا هي التي أعدّتك للسرير».

استبد بها الغضب وهو يترك الغرفة، وفكّرت: إنـه لا يحتمـل بالمرة. كيف خدعها برقته؟ وتصوّرت وهي غاضبة أنه يهزأ بها طوال الوقت. ولكنه كان على حق في نقطة واحدة. كان عليها أن تهادنه مؤقتاً حتى تشفى، وأجبرها نبض الألم في رأسها على التفكير في أمور أكثر هدوءاً.

جاءت مدبّرة المنزل ماريا وقد استعادت ستاسي هدوءها. ابتسمت المكسيكية المرحة وهي تضع الصينية وعليها الحساء الساخن على حجر ستاسي:

«هل الصغيرة تشعر بتحسن أم لا؟ الرأس يؤلمك كثيراً؟»

أجابت ستاسي وهي تشم رائحة الحساء فقد كانت جائعة:

«يؤلمني قليلاً. رائحة الحساء طيبة».

خرجت المكسيكية تاركة ستاسي تأكل، ثم عادت لتأخذ الصينية بعد أن انتهت ستاسي من شرب الشاي.

ابتسمت ستاسي وهي تناولها الصينية:

«كانت وجبة لذيذة يا ماريا».

ضحكت المرأة البدينة قائلة:

«شكراً، إني طاهية ماهرة. سيد كورد يقول إنني أمهر طاهية في تكساس».

ضحكت ستاسي قائلة:

«ربما كان يبالغ قليلاً، ولكن الطعام جيد جداً».

ساعدتها ماريا على الرقاد وغطّتها قائلة:

«نامي الآن. ستشفين في وقت قصير، والطبيب يقول عليك أن ترتاحي وتظلي دافئة ولكن السرير كبير جداً».

سألتها ستاسي إن كانت هذه الغرفة هي لكورد هاريس.

أجابت المرأة:

«نعم، فضّل أن تنامي هنا وينام هو في المكتب».

خشيت ستاسي ألا تستطيع النوم ولكن يتعين عليها النعاس بمجرد خروج المرأة من الغرفة.

تراقصت أشعة الشمس على السجادة إلى جانب سرير ستاسي. وجاءتها ماريا بإفطارها وساعدتها حتى اغتسلت. وربطت ستاسي شعرها بشريط يناسب لون سترة نومها حتى لا تمشط شعرها حول الجرح. شعرت بتحسن في صحتها وتجاهلت الألم في رأسها، وصعوبة التنفس من أنفها. كانت تتأمل زخرفة باب الغرفة الغريبة، عندما فتح الباب ودخل كورد هاريس مبتسماً:

«صباح الخير. قالت لي ماريا أنك استيقظت. هل ترحبين بزائر؟»

حاولت أن تخمّن من ذا الذي أتى لزيارتها:

«زائر؟ نعم».

قال كورد:

«هيّا ادخل يا صاحبي».

وفتح الباب لكاجون.

قفز الكلب إليها وهو يهزّ ذيله فهتفت في سعادة:

« كاجون!»

صعد الكلب للسرير وأخذ يلعقها فأنّبته قائلة:

«كف عن هذا يا غبي».

قال كورد وهو ما زال واقفاً بالباب:

«أنه سعيد لرؤيتك. لقد رفض الطعام هذا الصباح، ورفض أن يترك باب البيت. فقرّرت أن أحضره ليطمئن عليك».

دفعت ستاسي كلبها من فوق السرير، وهو ينظر إليها بشغف ثم قالت:

«أرجو ألاّ يكون قد أزعجك، إن كلانا متعلق جداً بالآخر».

«لديّ عملاً في المزرعة، ولذا سأتركك في صحبة الكلب. كلّفت ماريا بإحضار بعض الكتب من المكتبة. أعلم أن بيتنا ليس بالأناقة التي اعتدتها. ولكن إذا رغبت في أي شيء، اطلبيه وسنحاول توفيره».

«أشكرك. كل شيء على ما يرام، وسأحاول ألا أسبّب لكم أية مشاكل».

«لن يحدث هذا. على الأقل لن تسبّبي مشاكل لا أستطيع معالجتها».

وعادت إلى وجهه ابتسامته الساخرة وهو يغلق الباب خلفه.

سألت ستاسي كلبها:

«هل عالج أحد الأمور معك من قبل؟»

ترى ما الذي جعل كورد يتخذ منها هذا الموقف السلبي وفكّرت: أعتقد أنه يستطيع أن يعالج أي شيء يصادفه.

وبعد بضع دقائق جاءت ماريا تحمل بعضْ الروايات والمجلات، ولاحظت ستاسي وجود بعض كتبها المفضلة، فأخذت تقرؤها. ومر النهار سريعاً وهي تتوقع دخول المزارع عند أية دقة على الباب. وعندما عادت ماريا لتأخذ صينية العشاء، أيقنت أن كورد لن يأتي. ومن الغريب أنها شعرت بخيبة الأمل لذلك، ولكنها عزّت إحساسها هذا لشعورها بالوحدة ورغبتها في صحبة أي شخص مهما كان متعجرفاً.

٥ ـ لقاء الماء والنار

تنهّدت ستاسي وهي تسند رأسها الى الوسادة، وتربت بحنان على الكلب الراقد بجانبها، بينما انسلت موجات شعرها البني في إهمال حول عنقها ملامسة حافة ردائها بلونيه الأصفر والبرتقالي.

وبقليل من المساحيق، أخفت ستاسي احمرار أنفها، آخر علامات نوبة البرد التي هزّت كيانها بالحمى في الأسبوع الماضي، ولكنها شفيت سريعاً نظراً لجهود دكتور بوكانان الذي عالجها فور ظهور علامات المرض.

كانت ستاسي مشغولة بالمناظر المحيطة بها خارج المنزل، حتى أنها لم تسمع وقع الخطوات الوئيدة على أرض الشرفة الحجرية حين اقتربت منها وفي الحال تعرّفت عليها، ألم تنصت لسماعها خارج غرفتها طوال الأسبوع الماضي؟ إنها خطوات كورد هاريس. ونظرت اليه فاذا به ينظر إليها. جالت عيناها بقميصه الأزرق ذي الرقبة العالية الذي يبرز عرض منكبيه الى وسطه النحيل. كان يرتدي بنطلوناً أسود وحذاء عالياً. فأدهشتها أناقته غير المعهودة، وهي اعتادت رؤيته بثياب المزرعة. وكانت تعلم أن معظم الرجال الذين يعملون في الهواء الطلق، لا يستريحون إلا في ثيابهم العادية. كما لاحظت عدم وجود أثر للفح الشمس عند نهاية خط القبعة، أو بداية كم القميص مما يدلّ على انه يسبح كثيراً في مياه الغدير.

واحمرّ وجهها لاحساسها بأنها كانت تتفحصه، بينما مدّ لها يده بكوب من الشراب المثلّج. فأخذته بخجل وهي تلمح ابتسامته الحائرة، ولكن كورد لم

يعلق على نظراتها بل جذب كرسياً وجلس بجانبها. وقال برقة:
«تبدين بصحة جيدة. أرجو أن يروقك الشراب.»
«أشكرك، إنه طيب.»

شعرت بقربه منها، وشمت رائحة عطر الحلاقة الذي يستخدمه وهو يقول:
«شعور جميل أن يخرج الانسان بعد طول بقاء داخل البيت.»
قالت ستاسي بعصبية وهي تشعر بحاجتها للاستمرار في الحديث:
«نعم. إن لديك منظراً جميلاً هنا. لا بد أنك فخور بمنزلك.»
«ألا يضايقك قدمه؟»
صاحت وعيناها تتسعان:
«لا. إنه جميل، لا بدّ أنك قمت بالكثير من التجديدات.»
قال مبتسماً:
«نعم. كان البيت الأول يشمل هذا الجزء. وكان يستخدم لرد هجمات الأعداء. وقد ألغيت الجناحين الجنوبي والغربي. وحتى الآن أعتقد أنه أوسع من احتياجات رجل عازب.»
نظرت ستاسي لجدران الطوب النييء البيضاء قائلة:
«ولكنه سيكون بيتاً مثالياً عندما تتزوّج وتنجب.»
قال ببرود وتباعد وقد ركّز انتباهه على الجبل البعيد:
«بلا شك.»
تلعثمت قائلة:
«كنت أعني أن حجمه...»
«أفهم ما تقصدين يا آنسة آدمز، ولكني لا أتوقّع تحقيق هذا في المستقبل القريب.»
بالطبع كان يشير الى سوء حظه في حبه للفتاة التي حدّثتها عنها ماري. فقالت ستاسي بتفلول:
«لا تعلم. ربما كانت هناك الكثير من الفتيات اللواتي يحرصن على تغيير رأيك.»
رفع حاجبيه قائلاً:

«هل أنت إحداهن؟»

قالت بشيء من الغضب:

«لم أكن أشير الى نفسي.»

«إن الزواج من رجل يملك هذه الأرض الشاسعة، يبدو شيئاً رومانسياً ولكن الحقيقة شيء مختلف تماماً. فهذه الأرض شاقة تتطلب الكثير حتى في عصرنا المتقدم. فساعات العمل طوال و لا يمكن التنبؤ بالنتائج. وعلى الزوجة أن تبقى بمفردها وقتاً طويلاً. ولا يوجد أي نوع من التسلية إلاّ في مناسبات اجتماعية قليلة. ولا توجد المتاجر الضخمة التي تعوّدت عليها. فإذا أردنا التسوق ذهبنا الى سان انطوان أو الباسو. صعوبة هذه الحياة أكثر من أن تتحملها فتيات المدينة.»

وقفت وقد احمرّ وجهها وأجابت:

«لم أتقدم لشغل هذه الوظيفة يا سيد هاريس.»

وقف وأخذ بيدها في اتجاه البركة، وعيناها تلمعان ثم قال:

«ناديني باسم كورد فقط. تعالي هنا. أريد أن أريك شيئاً.»

قالت بصبر نافد:

«ما هو؟»

أنبها بسخرية قائلاً:

«حقاً يا آنسة آدمز، كنت أظن أنك تعلمت أن تتقبلي شيئاً من المزاح.»

«قابلت رجالاً أنانيين يصوّر لهم غرورهم أن كل النساء سيقعن عند أقدامهم.»

«وأنا قابلت نساء يشعرن أنهن استجابة دعاء كل رجل وأن عليه أن يستسلم لسحرهن».

وصلا للجانب الآخر من البركة، ووقفا وجهاً لوجه في تحد. وتكهرب الجو بهذا التحدي الصامت. وقال بصوت خفيض وهو ينظر للأفق:

«لن يجدي الاستمرار في هذا الموضوع. لكل منا رأيه الخاص.»

«بالضبط. والآن أرني ما أردت أن تريني إياه حتى أعود لغرفتي.»

«لن تهتمي.»

سألت في فضول بالرغم من ضيقها به وبعجرفته:

«ما هو؟»

أجاب بسخرية وهو يدير لها ظهره:

«مجرد مقبرة العائلة. أنا واثق من أنها لن تعجب ذوقك الرفيع.»

«أود أن أراها.»

أجاب كما لو كانت ستاسي تعتذر:

«ليس ضرورياً.»

«سيد هاريس. إن آخر ما أريد هو أن أتذلّل لك. قلت علينا أن ننسى عداءنا ونصبح صديقين، ولكن غرورك الجريح لا يفهم إلا الوفاء الأبدي. والآن أريد أن أرى المقبرة، فإذا لم تشأ اصطحابي صف لي مكانها لأذهب وحدي.»

كان صوتها لاذعاً، فاستدار اليها كورد ليتأكد من صدق رغبتها في الذهاب وقال:

«إنها قريبة من هنا، ولكنها على مرتفع ولا أريدك أن تجهدي نفسك في أول مرة تخرجين فيها. ربما ينبغي أن نؤجلها».

وأضاف عندما رأى اعتراضها:

«ولكن إذا كنت واثقة أنك تريدين الذهاب سأصحبك.»

«إني واثقة.»

«حسناً.»

رفضت أن يأخذ بيدها وبدأت في المسير الى حيث أشار وهو يتبعها. لهثت ستاسي بالرغم من الارتفاع البسيط، ولكنها تجاهلت لمعة السخرية في عيني كورد واتجهت نحو الباب الحديدي.

تضاءلت الصلبان وأحجار المقابر إلى جانب النصب الكبير في الوسط وكان المكان معتنى به بالرغم من قدم معظم المقابر. فقد طليت التركيبات الحديدية حديثاً بطلاء أسود، ولم تترك لتصدأ. وكست الحشائش الخضراء المقابر برقة. وفتح كورد الباب فدخلت ستاسي.

وقفا قرب الوسط. كانت معظم التواريخ في أواخر القرن التاسع عشر وبداية

القرن العشرين. وأشارت أربعة صلبان صغيرة إلى مقابر أطفال. وكان تاريخ أحدث المقابر منذ ثماني سنوات وكتب عليه، ستيفان هاريس الأب.

سألت ستاسي بهدوء وكلمة الأب تكسو صوتها بالحزن:

«أهذا قبر والدك؟»

«نعم.»

«لم ألحظ وجود قبر والدتك. أهي مدفونة هنا؟»

«إنها مدفونة مع عائلتها. لم تتحمّل حياة المزرعة ومتطلباتها، وعادت لعائلتها بعد ولادتي بسنين قليلة.»

كان صوته سريعاً وعيناه جامدتين.

سألت ستاسي وقد رق قلبها للرجل المتوفي، وابنه المهجور:

«تركتكما؟»

قال وعيناه ترفضان عطفها:

«لم يعطها والدي أي خيار، أشك أنك ستفهمين. هذه أرض صعبة ويجب على المرء أن يأخذ ماله ويحارب للحفاظ عليه. كانت أمي طفلة مدلّلة معتادة وجود من يخدمها، ولم يكن المستقبل المأمول يعني لها شيئاً. كانت تريد كل وسائل الترف التي اعتادتها، فلم تكف عن مطالبتها لأبي للحصول على اهتمامه وماله. ولم يكن هناك ما يكفيها من أيهما».

همست ستاسي بذكاء:

«كانت الأولية للمزرعة!»

سألها كورد وهو يشير للنصب المركزي:

«أترين هذا الشاهد؟ الينا تيريزا هاريس جدتي. كانت نبيلة أسبانية، أحبّت جدي الذي كان مزارعاً مكافحاً في تلك الآونة، وكانت أملاكه كثيرة. أما هي فكانت امرأة بحق. لم يكن لديه ما يقدّمه لها سوى منزل حجري قديم من ثلاث غرف. وبعض رؤوس الماشية، وأرض شاسعة وجافة في معظم الأوقات ولكنها لم تنزعج لهذا.»

كان صوته يفيض احتراماً وإعجاباً وهو يتحدث. ثم خطا للأمام في تلك

اللحظة. وفتح الباب لستاسي ثم تبعها للخارج. وقبلت أن يأخذ بيدها لانهماكها في الحديث وهما يسيران إلى حافة الهضبة المطلّة على فناء البيت. وأشار كورد بيده الأخرى إلى الجبال الغربية وقد كساها الشفق باللون البنفسجي:

«كان هنود الآباتش من قبيلة ماسكاليرو يستخدمون هذه الجبال كحصن يغيرون منه كما يشاؤون على المستوطنين وصغار المزارعين. ويقع أثر حرب الكومسانشي قريباً من هنا أيضاً. وقد انتهى تهديد الهنود عند بداية هذا القرن، وامتلأت هذه المنطقة من الغرب بمربيي الماشية طلباً لهذه المراعي الغنية بالحشائش. ولكن معظم المستوطنين جاؤا بماشية أكثر من احتمال الأرض. أي رعتها الماشية أكثر مما يجب ولذا انتشرت الصحارى في هذه البلاد.»

رفعت ستاسي وجهها باهتمام قائلة:

«ألا يمكن إعادة زراعتها ثم تترك لتنمو ثانية؟»

«فات أوان الاستصلاح، فإما أن تحمل الريح التقاوى بعيداً عن هنا أو لا يأتي المطر عندما نحتاجه، أو يجرف التقاوى قبل أن تعمق جذورها. إن الجهل والطمع أكثر ضرراً على المستقبل من ضررهما على الحاضر. ولكن أبي وجدي فهما هذا وعليّ أن أشكرهما لما لديّ الآن لأكثر من سبب.»

ابتسمت ستاسي قائلة:

«لا بدّ أنك فخور جداً بهما. لقد تغيرّت أمور كثيرة منذ أيام جدك.»

قال كورد وهو يضحك ضحكة خافتة:

«لقد كان مربي بقر وسيتقلّب في قبره اذا رأى الغنم ترعى في ارضه.»

«غنم؟ هل تربي غنماً؟»

«نعم، إن لي عدة مئات من الرؤوس المسجّلة في المراعي العالية.»

«ألا تربّيها مع الأبقار؟»

«أحياناً. عادة في الصيف، عندما ننقل الأبقار للتلال. ولدينا أيضاً ماعز الأنجوراه، ولكنها في طور التجربة في مزرعتنا. هناك عدد كبير من المزارعين الذين نجحوا في تربيتها. وهناك أيضاً الجياد، لدينا مجموعتين فريدتين ونأمل في

إنتاج كبير فقد ضاعفت عدد الأناث، وفي كل ربيع نقيم مزاداً لبيع الصغار، في سن عام أو عامين، التي نستغني عنها والكبار التي نود استبدالها بدم جديد.»

قالت ستاسي بتأمل وقد راعها حجم عمليات المزرعة:

«لم أكن أعرف أن لك كل هذه المشاريع المختلفة. أعتقد أن هناك آبار بترول أيضاً في المزرعة.»

ضحك كورد بهدوء للانبهار الذي بدا على وجهها وقال:

«لا تكتمل مزرعة متحضرة في تكساس بدونها، إن لدينا أربعاً على الحدود الشرقية، اثنتان منها فقط لا تزالان تنتجان. ومعظم أرض المزرعة تقع خارج المنطقة المنتجة للبترول.»

«بدأت أفهم معنى لفظ بارون الأبقار».

حذّرها قائلاً:

«لا تظني من كبر حجم المشاريع أن الحياة هنا سهلة، فكلّما تفرّعت مشاريع المزرعة كلّما ازداد عبء العمل، وازدادت صعوبة السيطرة عليها.»

وتجهّمت ستاسي لكلماته. كان من الصعب عليها أن تتصوّر هذا الرجل القوي فاقداً سيطرته على المزرعة. كان واثقاً مما يريد لدرجة أنه يمنع أي شيء من الوقوف في طريقه.

وقال كورد وقد رأى سيارة تقف خلف المنزل بعيداً عنهما:

«يبدو أن سيارة دكتور بوكانان قد وصلت، ويحسن بنا أن نعود كما أن ماريا ستجهز العشاء بعد وقت قصير.»

وأومأت ستاسي بالايجاب وتبعته عبر المنحدر. وعندما بلغا شرفة المنزل وجدا وجه الطبيب الشاب باسماً تحية لهما. وكانت مفاجأة سارة لستاسي عندما وجدت أن ماري زوجة الطبيب قد رافقته. خطت إليها المرأة السعيدة ذات الشعر الأحمر وذراعاها ممدودتان.»

صاحت ماري وهي تشدّ على يدي ستاسي بحرارة:

«تبدين رائعة.»

ثم أضافت مداعبة في صوت خفيض:

«قولي لي يا ستاسي هل أنتما على وفاق؟ إني لا أرى أثراً لجراح المعركة...»

أجابت ستاسي ضاحكة:

«لقد تصالحنا، كورد وأنا. أليس كذلك ؟»

ثم أضافت وهي تنظر لكورد الواقف إلى جانب الطبيب:

«لقد وجدنا بعض الأشياء المشتركة بيننا».

كان المزارع هو الشخص الوحيد الذي فهم إشارتها لحديثهما السابق عن رأي كل منهما في الآخر. قابلت عينيه الداكنتين ببرود وهي تمنع شفتيها من الابتسام بصعوبة. ولكن ماري استنتجت شيئاً مختلفاً تماماً، وفي ذهنها احتمال إقدامهما على الزواج.

علّق بيل بوكانان:

«هذه أخبار جديدة. لقد كنت في أشد العجلة للرحيل في آخر مرة جئت فيها هنا.»

وأضاف قائلاً لكورد وعلى وجهه الصبياني ابتسامة:

«ربما كانت مريضتي تعاني من نكسة.»

وأجاب كورد مبتسماً:

«أعتقد أنها بدأت تحس بوجود بعض الأشياء الجذابة هنا. ففي وجود فتاة جميلة مثل ستاسي ينبغي لي أن أقوم بدور المرشد، لمنع الشبان من الوقوع تحت تأثير سحرها».

لاحظت ستاسي كيف شدّد كورد على اسمها حين نطقه. وقد فهمت أنه لاحظ استعمالها لاسمه الأول، وتعمّدت أن تقابل نظرته المتهكمة وكلماته اللاذعة.

لم تستطع ستاسي أن تفسرّ لنفسها سبب إشارتها للكلمات الغاضبة التي جرت بينهما من قبل. لقد استمتعت بصحبته على التل وبالحديث الغني بالمعلومات. لماذا أثارته بكلامها؟ هل تشعر أكثر بالأمان مع كلماته المتهكمة وابتسامته الساخرة؟ وتعمّدت أن تغيرّ موضوع الحديث إلى الحديث عن طفلي ماري. وأحسّت عدة مرات بعيني كورد تتأملان وجهها ولكنها تجنبت النظر إليه.

حاولت ستاسي أن تخفي اضطرابها لقرب كورد منها، فقالت في صوت خفيض:

«أخشى أن نكون مضيفين سيئين يا كورد. فنحن لم نقدّم للدكتور و ماري أي مشروب.»

وبلا أي سبب ارتفعت يدها لتمسك بذراعه.

رماها كورد بنظرة دهشة، ولكنه كتم تلك النظرة سريعاً بابتسامة لضيفيه بينما أبعدت ستاسي يدها في خجل.

«سأطلب من ماريا أن تحضرَ لنا شيئاً. أهناك شيء خاص تفضّله يا بيل وانت يا ماري؟»

ضحك بيل قائلاً:

«لا. أي شيء بارد في كوب كبير.»

تركهم كورد لاحضار المشروبات. وأثناء غيابه جلست ماري وزوجها على كرسيين من كراسي الحديقة، بينما جلست ستاسي على أريكة ذات وسائد، وعاد كورد بعد بضع دقائق تتبعه المكسيكية البدينة وهي تحمل صينية المرطبات، واغتاظت ستاسي عندما جلس كورد على الأريكة إلى جانبها. ولكن الضيفين لم يلحظا غيظها في غمرة توزيع المرطبات بينما ظهر من ابتسامة كورد الجانبية أنه لاحظ ضيقها.

اتخذ الحديث طابعاً خفيفاً مما أراح ستاسي، ولكنها أحست عدة مرات بعدم ارتياح لادراكها أن العينين البنيتن تتأملانها، وضايقها قربه منها. واحتكرت ماري الحديث بشخصيتها المليئة بالحيوية، وأخذت تروي النوادر عن طفليها، ولكن الحديث عاد مرة أخرى لموضوع ستاسي والحادثة. فقالت ماري وهي تثرثر:

«عندما أخبرني بيل عن حادثتك صمّمت أن تأتي إلينا في المدينة. ولكنه أكّد لي أن بقاءك هنا أفضل حتى تكون لديك فرصة كافية للراحة.»

قال الطبيب بابتسامة:

«في الواقع قصدت الهدوء والراحة. وهذان الشرطان من الصعب تحقيقها في

بيتنا.»

فسرّت ماري كلامه قائلة:

«إنه دائم الشكوى من الصبيين، ولكنه يحبهما بقدر حبي أنا لهما. في أية حال ارى أنه على حق، فأنت تبدين صورة حية للصحة، وبالطبع من ذا الذي يستطيع البقاء في الفراش وسط كل هذا الجمال الطبيعي؟»

نظرت ماري لكورد نظرة جانبية وعيناها تومضان. وتكلّمت ستاسي حتى لا تعطي الفرصة للمزيد من التلميح:

«هذه المزرعة جميلة، وكل الأرض حولها ساحرة. تذكّر المرء بأنها كانت حدوداً منذ وقت غير بعيد.»

وأمّن الطبيب على كلامها قائلاً:

«إن تاريخ تكساس حقاً مثير.»

ووجّهت ماري سؤالها لكورد:

«هل كنتما في المدافن عندما حضرنا؟»

ثم أضافت بدون أن تنتظر جواباً:

«ليتك قابلت جدته يا ستاسي، كانت عجوزاً رائعة، ولكن أبداً لم تشعر بأنها عجوز، كانت مليئة بالنشاط والحيوية. كنت في التاسعة أو العاشرة عند وفاتها، ولكني أذكرها جيداً.»

قالت ستاسي:

«لقد حدّثني كورد عنها قليلاً.»

واستمرّت ماري في حديثها:

«كانت رائعة. لقد ورثت عن احد جدودها الاسبان روحاً رائدة لا تعرف الكلل. ولكن كان لها طريقة في رفع رأسها، ونظرة ثاقبة للانسان تذكّر الناس بدمها الأزرق. كانت أمي دائماً تقول أن دونا الينا هي الوحيدة القادرة على السيطرة على كورد.»

وأضافت محدّثة ستاسي في لهجة المتآمرين:

«لقد كان مرعباً وهو طفل. عصبي المزاج للغاية.»

ضحك كورد لهذه الكلمات قائلا:

«نسيت أن تذكري مزاج جدتي العصبي. كنت دائماً أعتقد أنها تحبني كل هذا الحب لأنني ورثت عصبيتها.»

ثم أضاف في لهجة حانية لستاسي:

«الحمد لله أنني تعلّمت أن اسيطر على عصبيتي.»

هزّ بيل بوكانان رأسه في شك وابتسم قائلاً:

«أخشى أن تكون قد جعلتها تشك في كلامك كثيراً. ولكن لا تخطئي فهمي يا ستاسي، أنا واثق أن المرأة المناسبة تستطيع التعامل معه، ولكني أكره أن أتلقى عصبيته عندما يفقد السيطرة على نفسه.»

شعرت ستاسي بحرج لمحاولات الزوجين التوفيق بينهما بخبث، وتذكّرها لحديث كورد السابق معها على الطريق، فأجابت إجابة مبهمة، ولحسن الحظ قاطعتها ماريا معلنة أن العشاء قد أعد.

سأل كورد:

«ستتعشى سوياً...أليس كذلك؟»

وبدأت ماري في الاعتذار ولكن كورد قاطعها قائلاً:

«لن أقبل منكما اعتذاراً. فمن النادر أن يأتينا ضيوف، ولن نترككما هكذا سريعاً. أليس كذلك يا ستاسي؟»

ومدّ لها يده فلم تستطع رفضها حتى لا تلفت الأنظار. وانشغل بالها فلم تتنبّه للزوجين، وهما يقبلان الدعوة بدعابة خفيفة، ولم تشعر بنفسها إلاّ وهي تدخل غرفة الطعام خلفهما، والمزارع وراءها. توترت عضلاتها وهي تكتم رغبتها في انتزاع نفسها من أمامه بعنف.

لقد أمدته بالطعم في أول الأمر بحديثها عن خلافها السابق، ثم تصرّفت كمضيفة بينما هي نفسها ضيفة عليه. كانت هذه اللعبة تسلية لستاسي في البداية، لأنها استمتعت برؤية الدهشة في عيني كورد، ولكنها الآن أحسّت بأنه يهزأ بها. لقد استطاع أن يقلب الوضع بأن يجعلها هي الأضحوكة، ولم يكن ذلك ليعجبها بأي حال.

همس لها كورد عندما أجلسها الى المائدة كما لو كان قد قرأ أفكارها:
«كان عليك أن تتأكدي من قواعد اللعبة.»

نظرت إليه بقلق ولكنها لم تجد ما ترد به عليه. كان تعبير وجهه وهو جالس أمامها لطيفاً، غير أن عينيه تجمدتا عندما راقب حمرة خديها وهي تستدير لترد على سؤال لماري. واضطررت أن تنظر بعيداً عن نظرته الغامضة مرتين خلال العشاء. وبدا كما لو كان العشاء سيستمر الى الأبد، وقد بلغ بها التوتر مبلغاً أحسّت معه أنها تجلس على برميل بارود سينفجر في أية لحظة. ولكن الحديث ظل في مواضيع غير شخصية حتى جاءت ماريا بالقهوة والحلوى، وشعرت بارتياح لقرب انتهاء هذا الموقف.

وداعبتها ماري وهي تهز يدها أمام ستاسي:
«هاي...عودي إلينا. ألم تسمعي ما قلت؟»
«آسفة يا ماري، أخشى أن أكون قد سرحت في أحلام اليقظة.»
«كنت أتساءل عما إذا كانت الحادثة قد تسبّبت في تغيير نيتك في البقاء؟»

أجابت ستاسي وهي تتجنّب نظرة الاهتمام في عيني كورد:
«لا. سأبقى أسبوعين آخرين قبل العودة.»

قال كورد بابتسامة:
«أخشى أن تكون بلادنا قاسية عليها. فأنا وأنت قد نشأنا هنا، واعتدنا في هذه الحياة. أما ستاسي فمن الشرق وأعتقد أن هذا المكان ممل بالنسبة لها.»

وأجابت ستاسي بصبر نافد:
«هذا ليس صحيحاً بأي حال من الأحوال.»

وداعبت شفتا كورد ابتسامة ساخرة وهو يقول:
«كل ما في الأمر أنه ليس أمامك مستقبل في هذه البلاد. أليس كذلك؟»

تلعثمت ستاسي وهي تشعر أنه يهاجمها خفية:
«نعم...أعني لا.»

وبدأت ماري تقول:
«الآن يا كورد.»

فقاطعها قائلاً:

«لا بدّ أنك تفهمين أن حداثة المغامرة قد ولّت بالنسبة لها. فالجبال كلّها متشابهة... أناس كثيرون يأتون للغرب بأفكار عظيمة، ثم يعودوا عندما يجدون العزلة والمضايقات فوق احتمالهم.»

وأنكرت ستاسي كلامه قائلة:

«لا يهمني كل ذلك فأنا أحب هذه البلاد.»

وتعمّد كورد أن يتجاهلها، فوجّه كلامه لماري الجالسة عن يمينه:

«أتعلمين يا ماري أن بناء مستقبل في هذه الأرض يحتاج مقدرة كبيرة على التحمّل؟ إن الرفاهية تصبح في غاية الأهمية عندما يحرم الانسان منها بعد طول اعتياد عليها.»

وفكّرت ستاسي بغضب: إنه يقارنني بوالدته.

ثم قالت وهي تطوي فوطة السفرة:

«إنك لا تعلم عم تتحدث.»

وأجاب ساخراً:

«بالطبع... يا لغبائي. كان يجب عليّ أن أفهم أن المظاهر تخدع. كان يجب أن أفهم أن وراء الثياب الأنيقة والسيارة السبور الثمينة، والحصان الأصيل، ينبض قلب فتاة ريفية لم تفسدها حياة التدليل.»

امتلأ جو الغرفة بالتوتر، بينما تفرّس كورد وستاسي كل منهما في الآخر. تمنّت ستاسي أن تهاجمه غير أنها كانت تعلم أنه سيستغل هذا لصالحه. وشعرت بانزعاج الزوجين فاغتصبت ضحكة ضعيفة وقالت:

«يبدو أنك قد فهمتني. إنني مجرد فتاة ريفية بسيطة.»

مر على وجهه الأسمر تعبير إعجاب سرعان ما استبدله بنظرة تهكّم وأجاب:

«إن كلمة بسيطة مناسبة للغاية، إذ أنها تشير الى قلة العقل. لقد أظهرت قلة عقلك عندما جئت الى هنا وحدك حيث لا يوجد لك معارف، وعشت وحدك في كوخ منعزل بدون أية حماية، ثم ركبت حصاناً لا تستطيعين السيطرة عليه، وذهبت الى أماكن لا تعرفينها. إنها ضربة حظ كونك لم تصبحي جثة هامدة.»

أجابت ستاسي وهي تدفع كرسيها بعيداً عن المائدة:
«لا أظن أن رأيك في شخصي وفي تصرفاتي يهم ضيوفك.»
ولحقت بها ماري في غرفة الطعام وسألتها:
«ما الذي يجري بينكما؟»
أجابت ستاسي ويداها معقودتان:
«إننا لا نتفق، هذا هو كل ما في الأمر.»
ونظرت خلفها بعصبية الى الغرفة الأخرى. واستمرّت ماري في الحديث:
«لقد بدا لي أنكما صديقان عندما جئناء حتى أنني وللحق تمنيت أن تتزوّجا.»
صاحت ستاسي بغضب واشمئزاز:
«هذا مستحيل. إننا نستطيع أن نتحدث حديثاً مهذباً، بين حين وآخر، ولكننا ننتهي دائماً وكل منا يمسك بخناق الآخر. ليس هناك أية فائدة في أن ندّعي أن كلاً منا يتحمل الآخر. إنه ساخر وأناني، إلى درجة يعتقد أن على الجميع أن يركعوا عند قدميه، وهو لا يجدني خاضعة كما يريد.»
ما أن نطقت ستاسي بهذه الكلمات حتى شعرت بوجود كورد في الغرفة. استدارت في تحد لتواجه نظرته الغاضبة. وبدا كما لو كان يملأ الغرفة بطوله الفارغ وكتفيه العريضتين مصغراً كل ما عداه.
وتكلّم كورد أخيراً قائلاً:
«إن ضيفينا سيرحلان... هل توصلينهما للباب؟»
لم تجبه ستاسي بل استدارت لتمشي مع ماري التي أخذت حقيبتها واتجهت للباب الخارجي. شعرت ستاسي بظهرها يوخزها إنذاراً بالشر لعلمها أن المزارع يمشي خلفها مباشرة. واعتذرت ستاسي لماري قبل أن تصل الى ساحة الدار:
«إني آسفة لاقحامك في معركتنا يا ماري. لكم استمتعت بمجيئك هنا.»
ونصحتها ماري:
«لا تدعي هذا يقلقك. إنه يحدث لأحسن الناس. وما عليك إلاّ أن تسرعي بالشفاء»

أضاف بيل ويده على كتف ستاسي:

«إنني أؤيد هذا الكلام، وكطبيب أنصحك بالراحة يومين آخرين على أن تحدي من نشاطك، وبعد ذلك تستطيعين فعل كل ما تريدين.»

نظرت ستاسي الى وجه الطبيب اللطيف بابتسامة وجلة. لقد طغى وجود الرجل الأسمر الى جانبها على إحساسها بالسعادة لطيبة اصدقائها الجدد. ومشى الزوجان الى سيارتهما وهما يهتفان بعبارات الوداع المرحة، وأخذت ستاسي تنظر الى السيارة وهي تختفي في ثنية الطريق وقد أحسّت باليؤس. واستدارت وهي عازمة على مواجهة كورد وعينيه الساخرتين فوجدته قد ذهب. ونظرت حولها بسرعة فرأت قوامه المألوف يخطو نحو الاصطبلات. وشعرت بالخيبة والارتياح في نفس الوقت ثم مشت الى البيت.

٦ ـ العقاب الجميل

عملت ستاسي في اليومين التاليين على أن تتجنب لقاء كورد هاريس. ونجحت في هذا بمعاونة المزارع نفسه، الذي بدا أنه أيضاً لا يرغب في صحبتها. حفرت بحذائها في الأرض الرملية، وأخذت تنظر حولها في تردّد. جاء أوان الحديث معه ولم تكن تتطلع إلى هذا أبداً. فقد استعادت قواها تماماً وأرادت أن ترتب لعودتها للكوخ. كانت قد أتمت حزم حقائبها بعد الغداء، وكان أمامها أن تبحث عن كورد وهي مهمة غير مستساغة لها بالمرة. مشى كلبها الكبير إلى جوارها وهي تخطو أمام باب المكتب المفتوح. وبنظرة إلى الداخل تحقّقت من شعورها الداخلي بأنه غير موجود. وتنهّدت في أسى ومشت إلى الاصطبلات. نظرت عبر المباني وفكّرت بتجهم: ربما كان في مكان ما على الجبال. لمحت حصاناً وراكبه يركضان عند الحظائر. ولم تعرف ستاسي الرجل فانتظرته وقد أثارت سرعته فضولها. وسمعت أصواتاً تصيح قرب الاصطبلات فاستدارت لترى سبب الضجة. ولكن المباني حجبت عنها الرؤية. وتوقّف الراكب عند باب الحظيرة ونزل عن الحصان.

«ما الخبر؟»

قال راعي البقر بصوت خافت:

«معذرة يا آنستي ولكنني ذاهب لاستدعاء الطبيب»

وبدأ يسرع في طريقه.

هتفت ستاسي وفي ذهنها صورة مخيفة لكورد يرقد على الأرض مغشياً

عليه:
«ماذا حدث؟ من الذي أصيب؟»
أجاب الرجل وهو يسرع نحو باب المكتب وستاسي تتبعه:
«هذا الشيطان الأحمر الذي يسمونه حصاناً هرب من الحظيرة عندما دخلها كريس، وحاول الشاب المغفل أن يمسك به وهو يركب حصانه. فجن جنون الحصان وهاجمه. لحسن الحظ كان السيد ونحن معه عائدين من الجبال، فرأينا ما حدث. لا أعلم مدى اصابة الشاب فأنا لا أستطيع الاقتراب منه».
تأمّلت الرجل وهو يمد يده للهاتف في غرفة المكتب وشهقت:
« ديابلو!»
قال الرجل في الهاتف بدون أن يوجه كلامه لستاسي:
«إن السيد بلغ به الغضب حداً يجعله يقتل ذلك الحصان».
وجرت ستاسي خارج المكتب إلى الحصان الواقف بالخارج فقفزت على ظهره ووجهته إلى حيث سمعت الأصوات. لم تكن أفكارها واضحة وهي تنادي على كلبها أن يتبعها وركضت بالحصان. كانت تعلم فقط أن عليها أن تكون هناك. يقتل ديابلو!
رنّت الكلمات في أذنيها كجرس الموت. وضربت الحصان باللجام من فرط اضطرابها وقفزت به حول المباني، ثم توجّهت إلى راكبي الجياد. وعندما اقتربت منهم رأت راكباً محشوراً تحت حصانه الساقط بينما وقف حصانها الأحمر بينه وبين الراكبين الآخرين. كان هناك حبل مفكوك يتدلى من رقبة ديابلو وهو يفلت من حبال الرجلين. كانت رقبته بيضاء من الزبد وهو مستمر في الهجوم بحوافره الشريرة.
صاح كورد عندما رأى ستاسي تترجل عن الحصان:
«ماذا تفعلين هنا؟»
والتوى وجهه غضباً وهو يدور بحصانه الكبير ليواجهها قائلاً:
«عودي إلى المنزل حيث مكانك».
وصاحت ستاسي وهي تستدير إلى حصانها الذي اندفع مهاجماً الراكب

الآخر بأسنانه العارية:

«إنه حصاني».

وزأر المزارع وهو يقف بحصانه إلى جانبها:

«أيتها الأنثى المجنونة. ألا ترين أن هذا الحصان الملعون قد جن؟»

في هذه اللحظة لمحت ستاسي وجود السوط في يد الرجل الغاضب وطرفه في الغبار الذي أثارته حوافر الحصان. تطاير الشرر من عينيها وهي ترفعهما لتلتقيا بعينيه الداكنتين.

«ماذا تنوي أن تفعل؟ أتضربه حتى يستسلم؟»

«نعم. إذا اضطررت لذلك فهذا الفتى قد أصيب».

وأمرته ستاسي:

«ابتعد عن طريقي».

ودفعت حصانه بعيداً عنها ثم مشت لتواجه الحصان الأحمر. صفر ديابلو وهو يخدش الأرض بحوافره ويهز عرفه الأصفر لها. وشبّ الحصان وحافراه في الهواء وأذناه للخلف. وحاولت ستاسي أن تخترق ذهن الحصان المتهيج فأمرته:

« ديابلو، ديابلو اهدأ!»

وظلّت أذناه ملاصستين لرأسه بينما أخذ يرفس الكلب من خلفه برجليه، ورأت ستاسي الحصان الساقط يحاول النهوض، إلا أنه سقط على جنبه. وحاول حصانها مهاجمتها فنادته وصوتها يعلو بلهجة الأمر. اعتقدت ستاسي أنها رأت أذنيه ترتفعان وهو يقترب منها. عندما كاد أن يصل إليها خطت جانباً فاندفع بجانبها، ثم استدار وواجهها وهو يهز رأسه للخصومة. لمحت ستاسي من طرف عينها الراكبين يتحركان. أحدهما اتجه نحو المصاب بينما اتجه كورد نحو حصانها والسوط على سرجه وفي يده حبل يهزه استعداداً.

وتغيرّ صوتها إلى همسة حانية:

« ديابلو... اهدأ يا فتى. اهدأ... إن كل شيء على ما يرام يا طفلي. تعال هنا تعال ».

ولكنه كان ثائراً وقد تذكّر الجرح الذي أصابه في عنقه. ولم يستطع الحصان

الأحمر أن يكبح جماح الغضب في داخله. وأخذ رأسه الرقيق يعلو ويهبط والزبد يسيل على عنقه. لقد عرف الفتاة الواقفة أمامه ولكنه كان يمتلىء بالكراهية والقوة. لمح بطرف عينه الحصان وراكبه يصلان خلفه، ورقص وهو يستدير لمواجهتها. ونادته ستاسي وهي تخطو للأمام. ولكنه في هذه المرة استدار بسرعة وجرى إليها مكشراً عن أسنانه ورأسه منخفض. وعندما حاولت ستاسي القفز بعيداً عن طريقه انحرف إليها رامياً بها إلى الأرض بكتفه الكبيرة

ووقفت مقطوعة النفس ولكنها لم تصب بسوء، ورأت كورد يسرع كالبرق خلف الحصان. زعق في الراكب الآخر فأحاط الحبلان في نفس الوقت برقبة الحصان الأحمر. وصرخ الحصان غاضباً وحاول أن يهاجم الراكب البعيد فأوقفه كورد بحبله.

وصاح الراكب الآخر في انتصار بينما أخذ الحصان يقاوم الحبلين بلا جدوى:
«لقد أمسكت به يا ريس! أمسكت به!»

وبعد بضع دقائق أدرك الحصان أنه لن يستطيع الانتصار، وبسرعة قاده الراكبان إلى الحظيرة التي هرب منها.

ونفضت ستاسي الغبار عنها ورأت الراكب الثالث الذي كان قد ذهب يستدعي الطبيب راكعاً إلى جانب الحصان الساقط وراكبه. واتجهت إليهم بسرعة فوصلت في نفس الوقت الذي وصل فيه كورد. كانت نظرته متجهمة وهو راكع بجوار راعي البقر الشاب الذي هزه الألم وقال كورد:
«اهدأ يا كريس سوف نخرجك بسرعة. الطبيب في الطريق».

أنّ الفارس الشاب وهو يصر على أسنانه من فرط الألم:
«كسرت ساقي، أخرجني من تحت هذا الحصان اللعين».

قال كورد موجهاً كلامه للفارس الآخر الذي انشغل بتهدئة الحصان الساقط:
«إلى أي مدى جرحت ساق هذا الحصان؟»

وكانت الاجابة الوحيدة هزة رأس بالنفي.

وبلا أية كلمة وقف كورد واتجّه للحصان ثم أخرج بندقيته من غمدها. ووقفت ستاسي كالمخدرة ترقب تحركاته بدون أن تقدر على الحركة. أصمّت أذنيها طلقة البندقية وهي تخمد حياة الحصان المجروح. غلبتها الصدمة والرعب فلم تر وصول الطبيب ولا الفتى الذي حمل على نقالة. ولم تستطع رؤية أي شيء إلاّ الحصلن الميت. حتى الدموع تجمّدت في عينيها. وأخيراً حجب كورد الرؤية عنها بقوامه المغبّر.

وتصلّبت وهي ترفع عينيها المليئتين بالدموع إلى وجهه الذي لم تره بوضوح. واغتصبت الكلمات بصعوبة بالغة وهمست:

«لماذا؟»

«عندما حاول كريس الامساك بحصانك هاجمه الحصان، وأوقع بالحصان والراكب فكسرت ساق كريس وكذلك ساق حصانه. الطبيب يقول إنه سيشفى خلال ستة أسابيع، ولكنه سيحتاج لعكازين لمدة شهر أو أكثر».

غمغمت ستاسي بغير وضوح:

«لا. إنه الحصان! لماذا كان لا بدّ أن تقتله؟ لم يكن الخطأ خطأه.».

وبكت. كانت هذه أول تجربة لها مع ما ظنته وحشية، ولم تستطع أن تمنع عينيها من الشرود نحو الحصان الميت. وانفجر كورد قائلاً:

«الحصان؟ ألا تفهمين أنه كان من الممكن أن أفقد رجلاً؟ إنساناً! وكل ما يشغل بالك هو أمر هذا الحصان!»

بلغ غضبه حداً جعلها تفيق من صدمتها، واستدارت لمواجهته مرة أخرى، فقرأت امارات الاشمئزاز والامتعاض على وجهه. لم يكن يفهمها. لقد حزنت من أجل راكب الحصان ولكنها لم تستطع أن تتقبل قتل الحصان عمداً.

وقالت بصوت حاد من الصدمة وقد اقتربت من الهستيريا:

«ولكنه سيشفى ويصبح على ما يرام. ألا تفهم؟ سيعود ولكن الحصان قد مات، وأنت الذي قتلته! كأنك لم تفعل أي شيء!»

«لا شيء؟ ألا تفهمين أنني أصبحت الآن بلا حصان ولا فارس؟ أتعتقدين أنه من السهل عليّ أن أجد من يحل محله في هذا الوقت من السنة؟»

وزأر وهو يقبض على ذراعها بقبضة من حديد ثم أضاف:
«عليّ أن أشكرك على كل هذا، أنت وحصانك هذا!»
صاحت بسخرية:
«أوه بالتأكيد، إن الخطأ كله خطأي... حسناً لا تقلق سأدفع حساب المستشفى وثمن أي خسارة أو إزعاج سببتهما لك».
وأجاب كورد:
«بالطبع ستدفعين... أنت على حق في هذا».
ثم خفض صوته متوعداً:
«ولكن كل أموالك لن تشتري لك مخرجاً من هذه الورطة. ستأخذين مكان كريس، ولأول مرة في حياتك ستعرفين معنى أن تعملي حتى تسدّدي ديناً».
سألته ستاسي وجسدها يرتعش من الغضب:
«ماذا تقصد؟»
أجابها وفي صوته رنة سخرية عميقة:
«لقد مثّلت دور اليتيمة المسكينة فحصلت على الكثير من العطف. أراهن أن قلبك انكسر حقاً عندما توفي والدك وترك لك كل هذا المال».
اخترقت كلماته قلبها كالسكين الحاد، ولم تقو على الكلام من بشاعة اتهامه لها. وبلا شعور وجدت يدها تصفع خده. وشعرت براحتها تلسعها وهو يركز عليها عينيه بنيرانها العميقة مرة أخرى.
ضغط على أسنانه وتمتم:
«هكذا تلعب القطة. لقد أفلت بفعلتك اليوم ولكن لو كنت مكانك لما حاولت أن أفعلها مرة أخرى».
ثم قال في لهجة الآمر:
«ستبدأين العمل غداً. وعليك أن ترتدي ثياباً عملية مثل الجينز. إننا لا نقيم عروضاً للأزياء على الجبال»
تسمّرت قدماها على الأرض، وتساقطت دموع الغضب على خديها وهي ترقب خطوات كورد مبتعداً. وشدّت قبضة يدها وهي تحاول أن تجد كلاماً تصيح

به خلفه، ولكن فمها رفض أن يفتح ولم تخرج منه الكلمات أبداً. وقفت في مكانها ترتعش من غضب لا تقوى على السيطرة عليه، ثم استسلمت تدريجياً للتشنج. وكان كورد هاريس قد امتطى جواده وانطلق في اتجاه بيت المزرعة قبل أن تتمكن ستاسي من أن تتحرك من مكانها. ثم اتجهت ببطء في نفس الاتجاه وذهنها مشوش بين أفكار الكراهية للمزارع والشفقة على الشاب المصاب والحصان الميت.

توجّهت للمنزل في صمت غافلة عن كل ما يحيط بها. دخلت غرفة نومها وجلست على السرير تنظر لحاجياتها التي كانت جمعتها لترحل.

مسحت دموع الغضب من عينيها بيد واحدة، وأخذت تستعيد حديثهما مرة أخرى. كان من الخطأ أن تهتم بالحصان أكثر من الانسان، ولكن مقتل الحصان صدمها بقوة. ربما كانت مخطئة أن تتهم كورد بقتل الحصان بوحشية بدون أن تفكّر إذا كان في الأمكان معالجة الحصان أم لا. ولكن ستاسي لم تستطع أن تلتمس له عذراً في هجومه الظالم عليها بشأن وفاة والدها. ثم إنها لم تقل له أبداً أنها يتيمة. صحيح أنها أخبرت آل نولان عن يتمها ولكنها بالطبع لم تحدث أحداً عن المال الذي ورثته! انطفأ الغضب في قلبها وحل محله شعور قاهر باليأس. كيف تأمل أن تقنعه بأن ما قاله غير صحيح؟ دفعها اضطراب أفكارها للنهوض، وأخذت تذرع الغرفة جيئةً وذهاباً. وراحت تغلي في داخلها من فرط استيائها من كورد هاريس.

ترى كيف يستطيع أن يجبرها على البقاء رغماً عنها؟ لن يستطيع بالطبع اجبارها على العمل. ما الذي تعرفه هي بالضبط عن الزراعة؟ وقفت ستاسي أمام المرآة وفي ذهنها فكرة تختمر، لن يستطيع أن يمنع رحيلها لأنه ليس موجوداً. نظرت بسرعة لساعتها ونظرت للخارج بنفس السرعة. لقد مضى وقت أطول مما تصوّرت. غابت الشمس ولا بدّ أن كورد قد تغيّب أكثر من ساعتين. إذاً ليس أمامها الكثير من الوقت إذا شاءت أن ترحل قبل عودته. وبسرعة بدأت تجمع أشياءها وتضعها خارج الغرفة.

بالطبع سيتهمها بالهرب لرفضها مواجهة تحديه، ولكن ليفكر كيفما شاء. لسوء

الحظ أنها أرغمت على قبول ضيافته أثناء مرضها، ولكن لم يعد هناك داع لبقائها أكثر من ذلك. يكفي أنها عرضت دفع حساب المستشفى حيث يعالج الفتى، وعرضت دفع ثمن الحصان لكورد. أما إذا كانت غير قادرة مادياً على الدفع فمعنى هذا أن يجدوا طريقة أخرى للتغلّب على هذه المشكلة. فهي اعترفت بمسؤوليتها عن حصانها.

وما كادت ستاسي تسرع بارتداء سترتها المزركشة، وتأخذ حقيبتها ثم تخرج من الغرفة حتى سمعت الباب الكبير المصنوع من خشب البلوط يقفل. وقفت كالمخدرة إلى جانب حقائبها، وأخذت تحملق في الرجل الطويل الواقف أسفل الدرج. كانت ملامح كورد مختبئة في الظل، ولكن ستاسي استطاعت أن تتخيل الحاجبين الداكنين معقودين، والفك الصارم، وفوق كل هذا تخيّلت خط الفم المكتئب. وبدت عيناها واسعتين داكنتين من شدة الخوف وسرت القشعريرة في جسدها. لم ينطق أحدهما بكلمة وازدادت حدة التوتر بينهما.

وقال بصوت خفيض:

«هل أفهم أنك راحلة؟»

وردّت عليه ستاسي بتحد رافعة ذقنها:

«وماذا إذا كنت راحلة؟»

خرج كورد من الظلال وردّ عليها ببرود:

«إذاً أقترح أن تنسي هذا الأمر».

ظهرت على وجهه خطوط جديدة لم تلحظها ستاسي من قبل، ولكنها لم تكن لتخطىء رنة الخشونة في صوته، وألقى نظرة أخرى على الحقائب وعليها ثم قال:

«من الأفضل أن تفكي حقائبك».

وانفجرت ستاسي غاضبة:

«هل تظن حقاً ان باستطاعتك الاحتفاظ بي سجينة هنا؟»

نظر إليها نظرة سريعة قبل أن يجيب:

«انت مدينة لي، وأنا أضع شروط الدفع».

كان من المستحيل أن تحارب هذا الرجل، وسرى اليأس في أوصالها. هزّت كتفيها قليلاً اعترافاً بالهزيمة. وذهب الوهج من عينيها وحل محله اليأس والحيرة. حاولت أن تقاوم للمرة الأخيرة فقالت:

«لن أبقى في هذه الغرفة ليلة أخرى».

ظهرت في عينيه نظرة من يتسلى قبل أن يشيح بوجهه عنها.

«كما تريدين. هناك غرفة للضيوف في الدور الأسفل. استعمليها»

وتوقّف برهة ثم أضاف:

«ربما كان يهمك أن تعرفي، سيكون الشاب في المستشفى لبضعة أسابيع، وبعد ذلك سيظل بلا نشاط لمدة شهرين».

شعرت ستاسي بالحرارة تسري في وجنتيها خجلاً لعدم اهتمامها بالسؤال عن حالة الفارس المصاب. لماذا كان يستطيع دائماً جعلها تبدو في صورة من لا قلب لها؟ شعرت بالانكسار فجمعت حقائبها وخطت إلى البهو وتوقّفت عند أول باب على يسارها. كانت في حالة من الضيق لم تسمح لها باستيعاب محتويات الغرفة. الغضب يسيطر على كل أفكارها، ولم يكن في إمكانها التفكير إلاّ في عيني كورد الداكنتين ووجهه بملامحه المحددة. وضايقها برود كورد ولا مبالاته، وكل ما استطاعت أن تفعله هو أن تجعل من نفسها أضحوكة، وتزيد من اعتقاده بأنها مدلّلة وأنانية. وكانت ستاسي تعلم أنها لن تلقى منه أية رحمة. كان يتوقع منها أن تحل محل الفارس بغض النظر عن كونها امرأة.

وهمست لنفسها: حسناً يا سيد هاريس. أستطيع أن أتقبل أي شيء تدبره لي لن أطلب الرحمة.

وفي الصباح التالي ما كادت الشمس تلمس السماء حتى سمعت ستاسي دقة عالية على بابها. رفعت نفسها على كوعها بصعوبة وقد غالبها النعـاس نظرت من النافذة ثم إلى الساعة الموضوعة على الخزانة. ومكثت لمدة دقيقة حتى تذكرت أحداث اليوم السابق فقالت:

«نعم؟»

جاءها صوت كورد من البهو:

«حان موعد استيقاظك، هذا إذا كنت تريدين تناول القهوة والافطار قبل الذهاب إلى العمل».

لم ينتظر إجابتها بل مشى بخطوات واسعة بعيداً عن الباب. نزلت ستاسي من السرير وكلها إصرار. ولم تكن في حاجة لأكثر من دقائق قليلة لترتدي بنطلونها وقميصها ثم تجمع شعرها وتربطه خلف عنقها. وداعبت شفتيها الرقيقتين ابتسامة صغيرة وهي تنظر لصورتها في المرآة. يخطىء سيد هاريس إذا ظن أن البنطلون الجينز الأزرق والبلوزة البسيطة سيقللان من أنوثة مظهرها. لم تستطع اخفاء نظرة السرور في عينيها وهي تشاهد رقة قوامها. تأكدت من وجود قفاز الركوب في جيب سترتها الجلدية، ثم أخذت قبعتها ونزلت إلى غرفة الطعام.

لسوء الحظ لم تجد كورد. فسألت ماريا التي أجابت بأن سيد هاريس انتهى من تناول إفطاره وخرج ليعطي تعليماته للرجال. كان ارتباك ماريا ظاهراً إزاء التغير الذي حدث في مجريات الأمور، وأخذت ترمق الفتاة بنظرات حائرة. وعندما فرغت ستاسي من تناول الخبز القديد والقهوة أبلغتها ماريا أن عليها أن تقابل السيد في الساحة.

عندما وصلت ستاسي للساحة وجدت أن أغلب الرجال قد رحلوا بالفعل، وحمدت الله إذ أنه كان محرجاً جداً أن تتعرّض لأوامر المزارع البغيض في وجود رجاله. وتعرّفت عليه من قوامه الفارع وهو يخاطب رجلين. كان ظهره في اتجاهها فلم يرها وهي قادمة، ولكن ستاسي كانت واثقة من أنه احس بقدومها.

حاول الرجلان الواقفان معه تجاهلها. كان أطولها قامة أكبر من ستاسي بسنوات قليلة، وبدا عليه الحرج من هذا الموقف. ظل رأسه مطرقاً وقبعته تخفي تعبيرات وجهه عن ستاسي. أما الرجل الآخر فكان أكبر بسنوات كثيرة وكان وجهه مليئاً بالتجاعيد وأشبه بالجلد من كثرة تعرّضه للشمس، حتى أن ستاسي لم تستطع أن تحدّد سنه. وعندما اقتربت من الرجال، قابلها الرجل المسن بنظرة واضحة، ورأت امارات الشفقة والتعاطف مكتوبة في عينيه اللتين ظهر فيهما الحول في شمس الصباح. كان عزاء لها أن تجد فيه حليفاً.

قال كورد بحدة وهو يدير لها ملامحه الشبيهة بملامح النسر:

«لقدآن أوان وصولك هنا يا آدامز. أريدك أن تذهبي اليوم مع هانك وجيم لتجمعوا قطيع الأبقار من المراعي الشتوية».

ألقى بأوامره بدون أن ينظر إلى القوام القصير بجواره بأكثر من نظرة عابرة. ثم وجّه كلامه للرجل المسن قائلاً:

«أية أسئلة أخرى يا هانك؟»

هزّ الرجل رأسه بالنفي.

«حسناً اركبوا الجياد»

بدأت ستاسي في اتباع الرجلين وهما يسيران نحو الجياد المسرجة الواقفة في الناحية الأخرى من الحظيرة، ولكن كورد ناداها فاستدارت لتواجهه، وأخرجت قفازها من جيب سترتها وبدأت في ارتدائه محاولة تحاشي شعورها بالتوتر كلما واجهته. قالت وهي تنظر إليه في جرأة، وفي صوتها حدة مماثلة لحدة صوته:

«نعم!»

لم تستطع ملاحظة تعبيرات وجهه.

لم يجبها وبعد دقيقة قال:

«سيريك هانك كل ما يلزم عمله».

أجابت وقد تضايقت من نظرة عينيه الفاحصة التي بدت وكأنها تتغلغل إلى أعماقها:

«حسناً. أي شيء آخر؟»

«لا. حظاً سعيداً».

كان صوته ينم عن عدم الاكتراث بعكس رقة كلماته.

تركته ستاسي بسرعة، ومشت إلى حيث انتظرها الراكبان. ناولها هانك عنان مهر صغير، ركبته في صمت ووجّهت حصانها ليتبع رفيقيها.

وبعد أن تركوا ساحة بيت المزرعة بوقت قصير سبقهما الراكب الشاب تاركاً ستاسي وحدها مع راعي البقر المتغضن... في الظروف العادية كانت تسعد لركوب الخيل في الصباح الباكر، ولكن ظروف اليوم كانت تشعرها بمهانة الوضع الذي وضعت فيه، ومنعتها كبرياؤها من النظر الى الرجل الصامت السائر

بجانبها.

وفجأة جاءها صوت هانك خشناً متسائلاً:

«آنسة آدامز.. ليس هذا من شأني وتستطيعين أن تطلبي مني الصمت، ولكن بما اننا سنبقى معاً طوال النهار فستغمرنا الوحدة إذا لم نتكلم إلاّ مع جيادنا. ليس لي أن أناقش أوامر السيد، ولكن لا أنا ولا أي من الشباب نحملك مسؤولية ما حدث للفتى أمس. سيكون اليوم طويلاً علينا فوق صهوة الجياد. وبالذات بالنسبة لفتاة مثلك من المدينة. ولكن بالطبع سيمر النهار بسرعة أكثر إذا دارت بيننا الأحاديث».

كان انطباع ستاسي واضحاً بأن هذا أطول تصريح للرجل. وابتسمت لمراعاته مشاعرها. كان يحاول أن يزيل عنها وعن نفسه الحرج بطريقته البسيطة.

«أشكرك يا هانك. إني أقدّر لك اهتمامك أكثر مما تتصوّر».

«حسناً. إني أعمل في هذه الأرض منذ كان السيد يرتدي البنطلون القصير، وقد رأيت أشياء غريبة. ولكني أعترف أن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها سيدة ترعى الماشية. وقد قال لنا السيد أن عليك القيام بعملك بنفسك بدون مساعدة».

وهزّ رأسه مرتبكاً.

أجابت ستاسي وعلى وجهها نظرة إصرار:

«وأنا أنوي هذا أيضاً. إنني لا أعلم شيئاً عن المزارع أو البقر، ولكني أستطيع أن أتعلّم. على الأقل أستطيع أن أركب الجياد كما أن صحتي على ما يرام».

«حسناً آنستي، أعتقد أنك تستطيعين ركوب الجياد فعلاً. ولكن عليك أن ترخي عضلاتك قليلاً. إنك لست في معرض للفروسية لذا يجب ألا تهتمي بمظهرك، ولو كنت مكانك لما قلت بقراً. عليك أن تقولي ماشية، هذا أكثر أمناً هنا».

ضحكت قائلة:

«لقد صحّحت معلوماتي. قل لي يا هانك، ما الذي سنفعله اليوم بالضبط؟»

«غالباً سنبحث وسط الأشجار عن الماشية الهاربة من القطيع، ثم نعدّ القطيع للانتقال للمراعي الصيفية. نقل معظم الرجال جيادهم في الشاحنات للطرف البعيد للمرعى، وسيصلون في اتجاهنا ومعهم القطيع الأساسي».

«نقلوا جيادهم في الشاحنات؟»

«نعم، هذا هو الغرب الحديث الذي ستجدينه. إنهم يفضّلون شحن جيادهم في عربات النقل أو المقطورات بدلاً من أن يضيعوا وقتاً طويلاً في الوصول إلى مكان القطيع».

صاحت ستاسي كما لو كانت تكلّم نفسها:

«هذه معجزة، أنهم لا يستعملون سيارات الجيب في تطويق القطيع».

«منذ بضع سنوات عندما كنا نحاول جمع الثيران والماشية الشاردة أمر السيد بإحضار طائرة هيليكوبتر للبحث عنها. لقد تغيرت الأمور. أعتقد أن علينا أن نلحق بجيم».

وسرى الدفء في هواء الصباح البارد مع شروق الشمس. واختفى ندى الصباح سريعاً من فوق النباتات حينما اخترقت أشعة الشمس الظلال. ولم يكسر حدة الصمت سوى وقع خطوات الجياد. سار الثلاثة عدة أميال قبل أن يصلوا لأول سور محاط بالأسلاك الشائكة، ثم قطعوا السور حتى وصلوا للبوّابة. مكثت ستاسي وهانك فوق جواديهما بينما ناور جيم بحصانه حتى صار في وضع يسمح له بفتح البوابة لزميليه. وبعد أن مرّا خلال البوابة تبعهما جيم ثم أقفل البوابة خلفه. قال هانك وهو يشير للأرض المتسعة أمامهم:

«هذا هو المكان الذي سنبدأ فيه عملنا يا آنسة».

نظرت ستاسي للمرعى الخالي قائلة:

«ولكني لا أرى أية ماشية؟»

«هكذا يبدو لك. لو كانت الماشية ظاهرة لنا لما توجّب علينا كل هذا العمل. ولكن الأبقار تعرف كل شجيرة وكل مخبأ في المنطقة وهي تنوي البقاء مختفية».

تساءلت في حيرة واضحة:

«ولكني كنت أظن أنكم تربون ماشية أليفة، نوعاً من سلالات هيرفورد».

«نعم. ولكننا نتركها وحدها، وقد أصبحت تهاب الآدميين تماماً مثل الأبقار البرية ذات القرون الطوال التي كانت ترعى قديماً في هذه الأرض. إن الفرق الوحيد بين النوعين هو أن النوع الحالي لا يبلغ نصف قبح النوع القديم».

ثم أضاف وهو يمر بعينيه عبر الأرض الممتدة:
«عادة نفترق في هذه المنطقة ولكن ابقي قريبة مني لفترة يا آنسة».

ركض الفرسان الثلاثة وكل واحد يبعد عن زميليه خمسين ياردة لليسار، وبدأوا جميعاً في مسح الشجيرات. كان العمل في هذا الجو الحار المغبّر شاقاً على الحصان والراعي، ولم تمر فترة طويلة حتى خلعت ستاسي سترتها وربطتها بسرجها. وبدأ حصان ستاسي أيضاً يعرق بسبب حرارة الشمس والحركة الدائمة. وجدا رأسين من الماشية وهما في طريقهما. وعندما انتصف الصباح كان أمامهم خمسة عشر رأساً من الماشية يسوقونها. طلب هانك من ستاسي قيادتها. بينما ذهب هو وجيم وراء عدد آخر من الماشية الشاردة.

في البداية ظنّت ان هانك عهد إليها بالعمل الأسهل، حتى بدأت تتنفس الغبار الذي أثارته الماشية بأقدامها. لم تستطع حتى أن ترتاح على صهوة الحصان. ففي كل مرة سمحت لانتباهها أن يتحول عن القطيع كانت هذه اللحظة بالذات هي اللحظة التي يقرّر فيها أحد الحيوانات الهرب مرة أخرى من القطيع. وكان الحصان بغريزته يجري خلفه ويعيده إلى باقي المجموعة. وفي عدة مرات كانت ستاسي واثقة من أن الحصان سيدور بسرعة قاذفاً بها لتطير في الاتجاه الآخر. كانت ساقاها متعبتين من طول إمساكهما بجانبي الحصان، وجسدها مغطى بالغبار والقذارة والعرق إلى درجة احسّت بأنها لن تستطيع العمل بقية النهار على هذا المنوال. وفي كل مرة كان هانك أو جيم يضيف رأساً جديداً للقطيع، كانت ستاسي تمنع تنهيدتها بصعوبة. لأنها تعلّمت أن كل رأس من القطيع يستلزم أن يقطع حصانها ضعف المسافة التي كان يقطعها من قبل.

كان حلقها جافاً وبه طعم الحصى، وخشيت أن تأخذ رشفة من الماء فيقرّر واحد من القطيع الهرب، كانت ستاسي سعيدة لرؤية هانك يركب بجانبها ولكن ابتسامة الترحيب كانت مجهدة. لم ينظر إليها مباشرة ولكنها رأت شبح ابتسامة على وجهه.

تمتم في الهواء:

«إنه حقاً عمل شاق أن يركب المرء حصانه كل هذه المدة وسط الشجيرات الكثيفة. سنصل إلى صهريج الماء حيث نلتقي بالعربة المطبخ لتناول الغداء. أعتقد أنك تحتاجين لقسط من الراحة؟»

أجابت ستاسي وهي تشعر بشفتيها تتشققان بينما تتكلّم:

«لا مانع من الاعتراف بهذا يا هانك».

ثم أضافت وهي تربّت بحنان على رقبة الحصان:

«أعتقد أنه يحتاج أيضاً للراحة».

«كاد عمله اليوم أن ينتهي».

هتفت ستاسي وقد استرعى انتباهها شيء ما إلى اليسار:

«أوه، انظر. أليس هذا جيم قادماً، ويبدو أن معه عجلاً رضيعاً يحمله على سرجه؟»

التقى بهما جيم ومعه عجل أبيض الوجه يرقد بالعرض على سرجه، وأمه تتبعه وهي تخور مهدئة صغيرها. هتفت ستاسي:

«إنه لطيف. كم عمره؟»

أجاب جيم وخجله باد عليه وبدون ان ينظر مباشرة إلى ستاسي برغم فخره باهتمامها لما وجد:

«وجدتها وسط الأشجار. لم يكن في استطاعة العجل اللحاق بنا، ففكّرت أن آخذه معي حتى عربة العجول».

سألت ستاسي وقد تحوّل انتباهها عن الوجه الأبيض:

«عربة العجول؟ ما هي؟»

أجاب هانك وقد سره اهتمام ستاسي بالعجل:

«هناك عادة بعض الصغار التي لا تستطيع اللحاق بالقطيع، ولذا نضعها في مقطورة حتى نصل إلى مكان المبيت حيث تنضم لأمهاتها. خذ العجل الصغير يا جيم. سنصل بعد قليل».

سألت ستاسي وهي ترقب جيم الذي يسبقها على حصانه:

«أهذا ما يدعى دوغي أي عجل رضيع؟»

أجاب هانك:

«لا. إن الدوغي هو عجل بدون أم، ولكن الكثير من الناس يطلقون اسم دوغي على العجول».

علّقت ستاسي وهي مستمتعة بحديث راعي البقر الخبير:

«لقد استقرت الماشية كثيراً. لا بدّ أن السبب هو وجودك هنا. قبل ذلك كانت تتّجه إحدى الأبقار كل خمس دقائق في اتجاه مختلف».

«لا. لست أنا السبب. إنها تشم رائحة الماء. فنحن نسير بالصدفة في الاتجاه الذي تريده».

بلغت الماشية والراكبان قمة مطلع في الأرض ثم وصلا إلى هضبة مرتفعة مغطاة بحشائش طويلة وشجيرات، واستطاعت ستاسي أن ترى أمامها صهريج الماء وطاحونة الهواء وخلفهما سيارة ستيشن وبعض سيارات البيك أب والمقطورات. عبرت وجهها نظرة دهشة وهي تقول:

«أهذه سيارة المطبخ؟»

أفلتت من راعي البقر المسن ضحكة لاذعة:

«قلت لك ان الغرب القديم قد ولّى. إنهم يحضرون الطعام من بيت المزرعة وينقلونه بالمقطورة إلى مكان الوقوف في الظهيرة».

ثم ابتسم متابعاً:

«اذهبي أنت. لن تذهب الماشية إلى أي مكان غير صهريج الماء. ارتاحي كلما سنحت الفرصة لذلك. سنقضي فترة بعد الظهيرة الطويلة فوق سروج جيادنا».

أمسكت ستاسي بعنان جوادها وأدارته حول القطيع، ثم ركضت في اتجاه العربات المنتظرة، متجهة إلى حيث ينتظر أحد رعاة البقر بجانب الشاحنات. كان هناك عدد من الفرسان بجانب السيارة الستيشن. بعضهم يتناول طعامه بينما همّ البعض الآخر بإحضار طعامه. ولاحظت ستاسي وجود اثنين من المكسيكيين يقومان بتهدئة بعض الجياد ويستبدلانها بجياد من الشاحنات. ترجّلت عن حصانها ببطء، كانت عظامها وعضلاتها تؤلمها لدرجة أنها اضطرّت للوقوف دقيقة حتى تستطيع أن تعتاد وجود أرض صلبة تحت قدميها. لم تكن

واثقة من قدرتها على السير. فمشت بضع خطوات حذرة في اتجاه السيارة حتى عرفت أنها تستطيع الاتكال على نفسها، فانضمت إلى الرجال عند سيارة الستيشن حيث كان يوزع عليهم الطعام.

توقف المزاح اللطيف والدمدمة بين الرجال عندما وصلت ستاسي مما أشعرها بعدم الارتياح. كانت مرهقة وجائعة بعد إفطارها البسيط فنسيت وضعها الحرج. واحمر وجهها وارتعشت يدها وهي تأخذ طبقاً من الطعام ومعه شريحة سميكة من الخبز من أحد الطهاة، وكوباً ساخناً من القهوة من طاه آخر. استدارت بعصبية لتبحث عن مكان مظلّل تستطيع أن تتناول فيه الطعام. كانت كل العيون متجّهة إليها وهي تستدير، ونظر البعض بعيداً عنها فجأة بينما أخذ البعض الآخر ينظر إليها في جرأة.

جاءها صوت متردد عن يمينها:

«أنستي!»

التفتت ستاسي فرأت جيم يخاطبها:

«تستطيعين الانضمام إليّ إذا شئت، فلم يعد هناك الكثير من الأماكن الظليلة».

نظرت لأول مرة في عيني راعي البقر الشاب قائلة:

«أشكرك يا جيم. أعتقد أن منظري يدل على أني ضالة».

«نعم. يجب ألا تأبهي لهؤلاء الرجال. إنهم لم يعتادوا رؤية النساء في المعسكر».

نظرت إليه، كان في وجهه شبه بالصبية مما يخدع من يريد تقدير سنه الذي كان في منتصف العشرينات.

سألته ستاسي أثناء تناول الطعام:

«هل تعمل هنا منذ وقت طويل؟»

«أعمل هنا من وقت لآخر طوال عمري. لقد انتهيت من الخدمة العسكرية منذ عامين، وذهبت للجامعة ولكنني أعمل هنا فترة الصيف لأكسب مصاريف تعليمي».

«ماذا تدرس؟»

«علم الغابات والحفاظ عليها».

«هل تنوي أن تصبح حارساً للغابة؟»

أجاب مستمتعاً باهتمام ستاسي به:

«أرجو ذلك. لقد اقترح سيد هاريس عليّ العودة للمزرعة، ولكني أفضّل ألاّ أفعل. في البداية كنت سأصبح طبيباً بيطرياً ولكني اكتشفت اهتمامي أكثر بالناحية الزراعية والبيئية».

قالت ستاسي وفي صوتها رنّة مرارة فيما تمضغ قطعة من اللحم:

«لو كنت مكانك لما سمحت لرغبات سيد هاريس أن تتعارض مع ما أريد»

جاء الردّ في صوت خافت ساخر:

«لا. بالطبع لا».

انتفضت رافعة رأسها، وكادت أن تختنق من قطعة اللحم التي تأكلها وهي تحملّق في وجه هاريس. بينما هبّ جيم واقفاً في حرج.

قال وهو يشد على فكه بقوة مدافعاً عن ستاسي بطريقته ضد ابتسامة مخدومه الساخرة:

«كنا نناقش خططي في الدراسة يا سيدي».

وقفت ستاسي بسرعة حتى تمنع الاستمرار في الحديث نيابة عنها، كان مهيناً بما فيه الكفاية أن تضطر للنظر إلى أعلى... لكورد، ولكن الجلوس تحت قدميه كان لا يحتمل مطلقاً. ونقل كورد هاريس بصره من عامل المزرعة الشاب إلى الفتاة الواقفة أمامه بدون قبعة. قابلت نظرته بجرأة وهي تشعر مرة أخرى بأن ثيابها ووجهها قد كساها الغبار.

قال كورد وصوته يبين رغبته في إبعاد جيم:

«ربما وددت مراقبة الجياد يا كونورز».

ألقى راعي البقر بنظرة مترددة إلى الفتاة الواقفة بجانبه، ابتسمت له ستاسي بثقة أكثر بكثير مما كانت تشعر. كان نبضها مسرعاً سرعة مزعجة. وتركهما جيم كونورز رغماً عنه واقفين وحدهما بجانب المقطورة.

«يبدو أنك استطعت أن تكسبي لنفسك معجباً!»

قالت ستاسي بصوت لاذع:

«لا تكن مضحكاً! لقد كان مهذباً فقط من الواضح أنه قد تعلم السلوك الحسن ولا أستطيع أن أقول هذا عن أناس آخرين».

قال كورد متجاهلاً إهانتها:

«أرى أنك في حالة جيدة على الرغم من العمل طوال الصباح».

واستند إلى جانب المقطورة ليشعل سيكارته. وبلا شعور أمسك بالثقاب حتى برد وهو ينظر طوال الوقت إلى وجه ستاسي المتسخ.

«نعم. قمت بعمل جيد بالرغم من الصعوبات. هل أنت مندهش؟»

أجاب:

«لا. أعتقد أنك تستطيعين عمل أي شيء تقررين عمله. إني فقط أتساءل إذا كانت عندك القدرة على الاستمرار».

مشى إليهما هانك وقد جذبت انتباهه مهرة بنية اللون في الناحية البعيدة من المقطورة، وقال:

«أهلاً يا سيدي، هل هذه هي المهرة التي اشتريتها في الأسبوع الماضي؟ إنها بالتأكيد حلوة الشكل».

أما المهرة فقد كرهت القيود وأخذت تذرع الأرض في صبر نافد وتجر لجامها.

لم تترك عينا كورد وجه ستاسي وقال:

«نعم إنها حلوة!»

شعرت ستاسي بحمرة الخجل تغمرها ولكنها لم تستطع أن تهرب من العينين المسيطرتين.

وسأل هانك:

«هل تعتقد أنها تستطيع الاستقرار في حياة المزرعة؟»

ثم وجه بقية كلامه لستاسي بدون أن يلاحظ أنها لا تعيره الكثير من انتباهها:

«لقد دخلت السباق عدة مرات وهي معتادة على الكثير من الضجة والصخب. تستطيع أن تقول إنها مدللة».

داعبت شفتا كورد ابتسامة هازئة وهو يرقب أمارات الارتباك واضحة على

وجه ستاسي وقال:
«من الصعب أن أجزم يا هانك».
استمر راعي البقر الكهل في الكلام وهو يهز رأسه:
«بالتأكيد إنها تبدو متعبة. ستحتاج للكثير من الصبر حتى تتغير طريقة تفكيرها».
قال كورد ضاحكاً:
«بالطبع ستحتاج للصبر، ستحتاجه. حسناً يجب ألا أعطلكما أنتما الاثنين عن عملكما أكثر من ذلك. سأراكما فيما بعد».
هزّ رأسه لستاسي، ثم ربّت بود على ظهر الحصان، ومشى بخطوات واسعة نحو المهرة المربوطة وعلى وجهه تعبير سرور مكتوم. فك لجام الحصان وقفز بسهولة فوق السرج، ولم ينظر في اتجاهها وهو يوجه الحصان نحو مجموعة من الركاب يتحدثون وهم يشربون آخر قدح من القهوة. لم تسمع ستاسي حديثهم ولكنها فهمت أنه يأمرهم بالعمل لأنهم تفرّقوا بعد وقت قصير، وساروا إلى حيث ربطت جيادهم.
لمحت جيم من طرف عينها يمشي قائداً حصانين وأعطاها لجام حصان كبير ذي أنف روماني. وأحست ستاسي بأن جيم كان محرجاً لتركها بين براثن كورد، ولكن في تلك اللحظة كانت ترى الوجه الذي لوحته الشمس واضحاً في ذهنها، والضحكة اللذيذة الصادرة من الحلق ترن في أذنيها. وركبا في صمت وانضما إلى هانك ليبدأوا عمل بعد الظهيرة.

٧ ـ لن اطلب الرحمة

ظنّت ستاسي أن الصباح طويل مرهق، ولـكن عندمـا بلغـت الساعـة السادسة مساءاً عرفت تماماً معنى أن يكون الانسان مرهقاً حتى العظام. وتاقت نفسها للصباح فرحاً عندما رأت طاحونة الهواء التي تشير إلى أرض مبيت الماشية تلك الليلة.

نالت ستاسي احترام هانك وجيم لأمتناعها عن إلقاء أعبـاء عملهـا عليها. وحاولا أن يعملاً بدلا منها عدة مرات إلا أنها لم تسمح بذلك. كان من السهل عليها استغلال كونها امرأة، وكانا سيسمحان بذلك على الرغم من أوامر صاحب العمل.

واقترح عليها هانك أن تسبقها وتحضر قدحاً من القهوة لكل منهم، ولكنها رفضت محاولة الضحك بالرغم من شعورها بالارهاق قائلة أنها سوف تحتـاج للمساعدة حتى تنزل عن ظهر حصانها. في تلك اللحظة شعرت أنها فعلاً لن تقدر على ذلك ولم تعتبر ما قالته مزاحاً. وبعد ذلك بفترة قصيرة انضم القطيع الصغير الذي جلبوه إلى القطيع الأساسي للمبيت على بعد حوال مائة ياردة من المعسكر.

شعر الفرسان بالسلام وهم في طريق عودتهم إلى المعسكر الغربي الحـديث المكون من شاحنات ذات محركات، حيث امتزجت رائحة البترول والزيت برائحة عرق الجياد والماشية والآدميين. وقبلت ستاسي بلـطف معاونـة جيم لهـا للترجل عن الحصان. ولم تشعر بأي حرج وهي تعـرج في طريقهـا إلى سيارة الستيشن حيث انبعثت رائحة القهوة الموعودة. وصل هانك قبلها وأخذ

يتحدث إلى الفرسان الذين تجمّعوا حول البوابة الخلفية.

نظرت ستاسي إلى عيني راعي البقر الكهل وعلى وجهها ابتسامة ألم ساخر، وقالت وهي تئن:

«هانك. أعتقد أنك تنظر الآن إلى أول سيدة مقوسة الساقين تعمل راعية بقر. لن أستطيع المشي بساقين مستقيمتين طوال عمري، وبالطبع لن أستطيع الجلوس!»

أثار هذا الحديث قدراً كبيراً من التعاطف والضحك من المجموعة، وأهم من ذلك أكسبها تقبلهم لها. ثم قدّموا لستاسي قدحاً ساخناً من القهوة وسط الدعابات والنكات. وبعد أن استنشقت البخار المتصاعد من القدح أفلتت منها تنهيدة إعجاب مسموعة. وصاحت:

«أيها الطاهي. إنك حقاً طاه ماهر، ولكن قل لي أين ماء الحمام؟»

قابلتها عاصفة أخرى من الضحك فأضافت:

«هل تتعرضون لهذا كل يوم؟»

أجابها أحدهم:

«مرتين يوم الأحد».

ثم ضحك من تعبير عدم التصديق الذي تصنعته ستاسي.

«لا تقصوا عليّ التفاصيل وساعدوني في الجلوس!»

خطا عدد من الفرسان إلى الأمام بينهم جيم كونورز، وبالغوا في الاهتمام بها وهم يساعدونها للجلوس على الأرض. بدأت ستاسي تستمتع بوجودها معهم بالرغم من آلامها وأوجاعها. وابتهج الرجال أيضاً لوجودها معهم، فمن النادر أن توجد بينهم امرأة، وبالطبع لم توجد بينهم امرأة تضحك على نفسها وعلى وضعها. ولمعت عيناها وهي تبدأ في تعليق ساخر جديد فلاحظت أن الرجال قد هدأوا ونظروا خلفها. احتفظت بمرحها واستدارت بابتسامتها المتألقة لتشمل القادم بمرحها. ولكن ظل كورد هاريس كان يسقط على الجمع. كان تعبير وجهه يدل على الاهتمام الساخر بالفتاة والرجال المحيطين بها. ولم تستطع ستاسي معرفة كيف ولماذا أتتها قوة الأعصاب لتقول ما قالت:

«أوه... سيدي! أرجو أن تسمح لهذا العامل المتواضع بالجلوس في حضرتكم العظيمة لأنني أقسم أنني لن أستطيع النهوض إذا أمرتني بذلك».

أطبق صمت بارد على الرجال وهم ينتظرون ردّ رئيسهم، وروعت ستاسي بالكلمات التي نطقتها ولكن فات أوان سحبها. وأمسكت أنفاسها هي والرجال، وجاءت الضحكة الخافتة أخيراً فأراحت الجميع، خصوصاً ستاسي.

فأمر كورد الطباخ وهو يبتسم قائلاً:

« تشارلي... اعطني قدحاً من هذا الذي تطبخه بينما أجلس إلى جانب هذه الآنسة».

وأشعل أحد الرجال ناراً للمعسكر، وركّزت ستاسي انتباهها على النار بدلاً من الرجل الجالس بجانبها، وحاولت أن تتجاهل اضطرابها عند سماعها لضحكته اللطيفة. بدأت الشمس في الغروب ملقية بظلالها الملونة على المناظر الريفية. بينما أخذا يرشفان قهوتهما في صمت. أحضر لها الطاهي طبقاً من شرائح اللحم والفول وأعاد ملء أقداح القهوة.

سألها كورد عندما شرعا في تناول الطعام:

«حسناً. ما رأيك في قيادة الماشية؟ هل هي كما كنت تتوقعين؟»

أجابت ستاسي بابتسامة:

«لا. أنا لا أقصد أن أشكو ولكن العمل أكثر مشقة مما ظننت».

«لقد أحرزت نصراً مؤكداً حتى الآن».

«هل تعني أنني لن أستطيع الاستمرار؟»

«لا أعني إلاّ أنك قد أحسنت العمل جداً».

لمعت عيناه وهو يضيف:

«يجب أن تعالجي عصبيتك هذه. إنك تشعرين بالاهانة بسرعة أكثر من اللازم».

أجابت ستاسي ونظرها ما زال مشغولاً بوهج النار:

«ربما يكون لديّ سبب لذلك».

ابتسم كورد وعيناه ترمقان وجهها الساكن:

«أصبت في قولك. أتصوّر أن تكوني في غاية الارهاق بعد عمل اليوم. سيعود الرجال لبيت المزرعة بعد قليل. تستطيعين أن تركبي معهم أو تنتظري قليلاً لأوصلك».

دهشت ستاسي وقالت:

«هل سيعود الجميع؟ أتعني أنكم تتركون الماشية بدون رعاية لتشرد؟»
ضحك كورد قائلاً:
«لا. سيبقى معظم الرجال ويأخذون ورديات لقيادة القطيع. لقد أحضروا فراشهم الذي يطوى».
وأشار إلى حيث كان الرجال يشرعون في إعداد فراشهم.
«إذاً لماذا أعود أنا لبيت المزرعة؟؟»
أجاب كورد باقتضاب:
«لأنك لست مستعدّة للمبيت. وغير مسموح لامرأة بالمبيت هنا. ثم إنك قد قمت من فراش المرض منذ أيام قليلة. ومن الحماقة أن تبالغي في إرهاق صحتك».
«ولكنني مجرّد عاملة في مزرعتك. ألا تذكر؟»
قالت ستاسي قولها بسخرية وعيناها تشعان في وهج النار. قال بلهجته الحادة:
«أثناء النهار».
جاء صوت ستاسي منخفضاً ومصمّماً:
«سأقضي الليلة هنا».
«ستعودين معي».
«اذاً ستضطرّ إلى حملي بالقوة من هنا، وهذا سينتج عنه منظر مثير، ولكنك لا تمانع من حدوث مثل هذه المناظر. أليس كذلك؟»
وقال كورد:
«تنسين أنه لا يوجد لك مكان للنوم. ألم تتعلّمي من تجربتك الأخيرة ما الذي يمكن حدوثه من برودة الليل؟»
«أنا واثقة من أنني أستطيع أقتراض بطانية أو أي غطاء من أحد الرجال».
أجابها هازئاً:
«سيرحّب الكثيرون بمساعدتك».
صاحت ستاسي:
«يا لتفكيرك المنحط»
ثم قفزت واقفة وقد نسيت عضلاتها المنهكة. وصعد الدم ثائراً إلى وجهها وهي

تنتظر أن يقف كورد أمامها. ثم أضافت:

«لا أعلم أي نوع من النساء يتعاملن معك، ولكني أؤكد لك أنني مختلفة عنهن».

وعلا صوتها وهي تجاهد السيطرة على نفسها. قائلة:

«لست مضطرة لسماع مثل هذه التلميحات من أي رجل!»

أمسك كورد بذراعها ليمنعها من الهرب منه. وقفت ستاسي وهي ترتعش بدون أن تحاول الافلات من قبضته الحديدية أو تدير وجهها لترى عينيه الداكنتين الباردتين.

سألها وهو يهمس هازئاً:

«هل تأملين أن يأتي أحد فرسانك لنجدتك؟»

لم تستطع الاجابة، ووقفت بدون حركة، وأخيراً سمعت صوت تنهيدة تفلت من شفتيه في نفس اللحظة التي ترك فيها ذراعها. وقال كورد بهدوء:

«أعتقد انه من المناسب أن أعتذر. لذلك أعتذر عن التلميحات التي صدرت مني، وسأرتب لبياتك هنا الليلة».

لم تواجهه ستاسي حتى بعد هذا الحديث، فقد امتلأت عيناها بدموع المهانة والألم الساخنة، بينما شعرت بيديه تلمسان كتفيها وهو يديرها لتواجهه. ووضع يده الكبيرة على ذقنها برقة مدهشة بينما أخفت قبعته الكبيرة تعبيرات وجهه. جاء صوته العميق المألوف:

«أعتقد أن كلاً منا متعب ومتوتر. عليك الحصول على نوم مريح».

وبهدوء استدار ورحل. شعرت بالفراغ وبرد الليل يلفح وجهها وكتفيها حيث لمستها يداه منذ لحظة. واختفى كورد تاركاً ستاسي تتأمل الظلام خلفه. وعادت وهي متشككة في مشاعرها الى النار والرجال الصامتين حولها.

جاءها جيم كونورز من وراء احدى الشاحنات، ومعه فراش وبطانية. رمق وجهها بعينيه العسليتين اللامعتين متسائلاً، ولكن ستاسي أخذت منه الفراش وهي تشكره بهدوء. ومشت الى الجانب الآخر من النار. أخذت ترقب بغباء العمال وهم يحملون الجياد في الشاحنات ويبدأون في الحركة. وبصورة لا ارادية أخذت تبحث عن كورد بين الرجال الواقفين، وأذناها تنصتان للحديث الهادىء حتى تسمع صوته، ولكن بدون جدوى.

وغطّت نفسها على فراشها، وراحت تحدّق في السماء الزرقاء الداكنة فوقها، تنتابها مشاعر متباينة، الألم، الغضب، المهانة، الاستياء. وفوق كل هذا العجب والحيرة لشأن هذا الكورد هاريس الذي لا تستطيع التنبؤ بتصرفاته. وأخيراً شدّ انتباهها ارهاق عضلاتها واستغرقت في النوم بالرغم من خشونة الأرض وبرودة الهواء.

كانت متأكدة من أنها نامت لتوها عندما شعرت بيد تهزّ كتفها برقة. فتحت عينيها على السماء المضاءة بالنجوم. كان من الصعب على ستاسي رؤية الشخص الواقف بجانبها في هذا الظلام. ظنّته في أول الأمر كورد، ولكنها تعرفت على قوام جيم كونورز.

«لقد حان ميعاد الاستيقاظ».

تمتمت وقد غلب صوتها النعاس:

«ما زال الظلام حالكاً!»

أجابها راعي البقر الشاب بخفة:

«الساعة الآن الرابعة. اننا نستيقظ مبكراً هنا. وطعام الافطار على وشك الاعداد. يحسن أن تغتسلي».

بعد ذلك بلحظة واحدة ذهب. قامت ستاسي متألمة من فراشها وكل عضلاتها تصرخ فيها ألاّ تتحرك. كان كل ما استطاعته هو أن تقف. مشت وعضلاتها متصلبة إلى حوض الماء الساخن. حمدت الله وهي ترش وجهها بالماء مستمتعة بإحساس النظافة في جلدها. واستيقظت تماماً وراحت تنظر حول المعسكر باهتمام.

شاهدت ستاسي شاحنات الجياد وهي تقترب محمّلة بجياد جديدة للعمل هذا النهار. كانت ستاسي تأكل إفطاراً هائلاً أحضره لها جيم، وما أن فرغ جيم من إفطاره حتى عرض عليها أن يحضر لها حصاناً. وعاد بعد بضع دقائق يقود حصاناً كبيراً وآخر أصغر حجماً. وبسرعة أنهت ستاسي آخر كعكاتها، وحملت الطبق والكوب إلى سيارة الستيشن. وعندما عادت إلى راعي البقر كان العديد من الركاب قد ذهبوا. وانضم إليهم هانك راكباً حصانه.

سألها مبتسماً:

«هل أنت مستعدة ليوم آخر يا آنسة؟»

وأضاف وهو يراقبها وهي ترتدي قبعتها:

«إن راعي البقر الحقيقي يرتدي قبعته بمجرد أن يستيقظ».

ضحكت وأخذت اللجام من جيم قائلة:

«ما زلت أتعلم. ما هي خططنا هذا الصباح؟»

«سنمسح الجانب الشرقي للقطيع الأساسي بحثاً عن الماشية الشاردة».

أفلتت آهة من شفتي ستاسي وهي تمتطي جوادها. كان شعورها مزيجاً من التطلع للأوامر، وثورة عضلاتها المتألمة للعودة للسرج. وسألته:

«هل سينضم سيد هاريس إلينا اليوم؟»

«أوه. لقد قضى ليلته هنا أمس، وتولىّ إحدى الورديات. أعتقد أنه يقود القطيع الآن».

فمن الغريب أن فكرة وجود كورد في المعسكر طوال الليل قد أقلقتها. وهتفت قائلة:

«إنه لصباح رائع الجمال».

وأخذ حصانها يرقص كما لو كان يؤكد كلامها. وعلت الشمس في كبد السماء طاردة آخر آثار ظلال الليل.

وأجاب راعي البقر جيم وقد تأثر بحيوية ستاسي الجذابة الراكبة إلى جانبه:

«إنه الربيع».

فضحكت قائلة:

«هذه بلاد جميلة خاصة في الربيع! شيء عظيم مجرد أن يكون المرء حياً!»

«هل تحبين الحياة هنا حقاً. أعني في تكساس؟»

«نعم أحبها. الأرض رحبة وتشعرك بالحرية. لا أحد يزاحمك. من الصعب عليّ أن أصفها».

«أعرف ما تقصدين. فلنمض في هذا الاتجاه. أحب أن أريك شيئاً».

«ما هو؟»

قال ناظراً للأمام وهما يغيران اتجاههما إلى اليسار:

«سترين. ما الذي أتى بك إلى تكساس؟»

أجابت بهدوء:

«قتل أبي في حادثة طائرة منذ حوال شهر ونصف. كنا صديقين حميمين، توفيت والدتي بعد ولادتي بعدة أشهر وبقي كل منّا للآخر».

نظر جيم للفتاة بهدوء بعينيه العسليتين ولكنه لم يقاطعها.

«كان والدي مصوراً حراً شهيراً في مجاله. ومنذ بدأت أمشي أخذني معه في مهامه. لم أمكث في أي مكان مدة كافية تسمح لي بأن يكون لي أصدقاء».

وأضافت ستاسي وفي ذهنها كارتر ميلز:

«أوه. كان هناك أناس تتجدّد صداقتي لهم عند العودة، ولكن في الحقيقة لم يكن هناك سوى أنا وأبي. وكان أبي قد استأجر طائرة لتعود بنا إلى واشنطن بعد رحلة في تنيسي. وعندما كنا فوق الجبال حدث عطل في المحرك وسقطت الطائرة».

وأطبق الصمت برهة بينما حاولت ستاسي السيطرة على الغصة في حلقها. واستطردت وهي تنظر أمامها:

«كان معي كلبي كاجون الراعي الألماني. كنت في غيبوبة ولكنه تمكن من أن يجرني خارج الطائرة، وبعد ذلك بقليل انفجرت محترقة. وكان أبي بالداخل».

قال جيم:

«كان أبوك جوشوا آدامز؟»

«نعم. بعد ذلك كنت في حيرة من أمري. لقد عرض عليّ كثيرون من أصدقاء أبي المساعدة، ولكني لم أكن أعلم ما الذي يستطيعون فعله».

واغتصبت ضحكة وأضافت:

«كان يحب الغرب. أعتقد أنني جئت هنا لسببين: أن أكون قريبة منه، وأن أعرف الهدف الذي أسعى إليه في حياتي».

«هل جئت هنا من قبل؟»

«ليس هنا بالذات. ولكن كان لأبي مهام في الباسو عدة مرات، وفي أماكن أخرى من أريزونا ونيو مكسيكو».

ثم أضافت ضاحكة:

«حقاً لم أكن أتوقع أن أقضي وقتي في مطاردة الماشية!»

فهم، جيم أنها تحاول التخلص من حزنها الذي أثاره الحديث عن والدها. فضحك مثلها قائلاً:

«لا. لا أتصوّر أنك كنت تتوقعين هذا. لقد كنت وهانك مع السيد عندما وجدك على الجبال ذلك الصباح».

«كنت هناك؟»

«كان السيد في حالة يرثى لها عندما وجد حصانك. كان أول من لمح كلبك ووصل إليك. لم يشاهده أحد منّا في مثل هذه الحالة من قبل. كان يلقي بالأوامر بسرعة ولم يسمح لأحد سواه بالاقتراب منك».

ضحكت ستاسي متجاهلة نظرة الفضول في عينيه وقالت:

«ربما كان يخشى أن أقاضيه لسماحه للثعبان بالوجود في أرضه».

«إنكما لا تتفقان أنتما الاثنان».

«ليس هذا ذنبي. أعتقد أنه يكره النساء بوجه عام».

قال راعي البقر وهو يهزّ رأسه متشككاً:

«لا. لاأصدق هذا. بعد خطبته لليديا لم يعد يحكم على النساء بمظهرهن. لقد نسي معنى كلمة ثقة».

«مهما كانت مشكلته فهي ليست مشكلتي».

قال جيم موجهاً حصانه فجأة نحو اليمين في اتجاه تل صغير:

«المكان الذي أريدك أن تريه هنا. لقد كنت في محاضرة حيث كان أبوك محاضراً زائراً. أعتقد أنك ستتصوّرين هذا».

بلغ الراكبان قمة مرتفع صغير، مغطى ببحر من الزهور الزرقاء. وقفا برهة على التل بينما حدّقت ستاسي في مهابة لجمال الزهور المتعددة، وهي تتموج متألقة في نسمة الصباح. لقد كست الطبيعة التل بغطاء داكن الزرقة. وعلى بعد سمعا أغاني الطيور التي جعلت الحياة تدبّ على التل.

صاحت ستاسي أخيراً:

«إنها جميلة يا جيم. ما هي؟»

«أسمها القبعة الزرقاء».

وبقيت عيناها على الزهور وهي تقول:
«إن لونها أزرق جميل يكاد يكون بنفسجياً. إنها تخجل زرقة السماء».
«هل ننزل من على التل؟»

لم تجبه ستاسي ولكنها لمست جانب الحصان بكعبها. نزلا من فوق التل أحدهما وراء الآخر، ووقفا وسط الزرقة الغنية. ترجّل جيم قبل ستاسي وساعدها في النزول من الحصان. بقيت يده على ذراعها وهما يسيران وسط الزهور. لم تستطع ستاسي مقاومة رغبتها في جمع باقة صغيرة واستنشاق عبيرها الحلو.

واستدارت ستاسي لتواجه راعي البقر قائلة:
«كم أنا سعيدة أنك أحضرتني هنا!»

ووضع راعي البقر يديه على كتفيها وباقة الزهور بينهما، وعندئذ سمعا وقع خطوات حصان يقترب. استدارا في نفس اللحظة لرؤية القادم. لم تحتج ستاسي إلا للحظة لتتعرف على الراكب الجالس باستقامة فوق السرج، وبدأ الدم يدق في عروقها. وأوقف كورد هاريس حصانه أسفل التل أمام الصديقين. وجاء صوته ملمحاً:
«هل أقطع عليكما شيئاً؟»

لم يعط أحدهما فرصة للأجابة، وأراح ذراعه على السرج قائلاً:
«إذاً فلنعد إلى العمل ونترك الزهور لما بعد العمل».

ركب جيم وستاسي جواديهما وهما يشعران باتهام العينين الداكنتين. وعندما انطلقا في طريقهما لكز كورد حصانه بينهما كما لو كان يفرّق بين طفلين شقيين. أطبقت ستاسي شفتيها بصرامة. وقد أساءتها طريقة معاملة كورد لهما. لم يأبه لغضبها. وبعد أن تركوا مرج زهور القبعات الزرقاء أدار كورد رأسه قليلاً في اتجاه راعي البقر الهادىء الراكب على يساره، وأمره بلهجة يتحدّى أن يرفضها:
«أريدك أن تعود للقطيع الأساسي وتساعد جنكز يا كونورز. سأرافق الآنسة آدامز إلى حيث يمسك هانك ببعض الماشية الشاردة».

ابتعد راعي البقر الشاب بحصانه عن ستاسي ومخدومه ولكز حصانه

وانطلق راكضاً. واستدارت ستاسي بغضب إلى الرجل الواقف بجانبها:

«لم يكن من حقك أن تنهره. فأنا مخطئة مثله تماماً».

أجاب كورد وعلى شفتيه ابتسامة وعيناه تشعان ناراً:

«يسعدني تفكيرك بهذه الطريقة، ولكن إذا كان الأمر يهمك فقد كنت أبحث عنه لأقول له هذا الكلام قبل أن أجده معك».

لهثت ستاسي. لأنها اعتقدت أن كورد يؤدب زميلها بسبب اهتمام جيم بها. وسرّت وجنتيها حمرة الحرج.

«ولكن، لا يعني هذا أنني أقر أنك تسحري رجالي حتى ينسوا القيام بأعمالهم».

تمتمت ستاسي:

«لا أعلم عم تتكلم».

«بالطبع لا تتوقعين أن أصدق أنكما كنتما تبحثان عن الماشية الشاردة في هذا الحقل؟»

أجابت ستاسي ساخطة:

«لا. بالطبع».

«اذاً ليس هناك شيء آخر يقال. أليس كذلك؟»

صاحت ستاسي:

«نعم هناك ما يجب أن يقال، ليس من حقك أن تملي عليّ من الذي أصادقه أو لا أصادقه».

قال بصوت غاضب مثل ستاسي:

«هناك الكثير الذي أريد أن أقوله. إنك في خدمتي. لذا فأنا مسؤول عن تصرفاتك. وإذا لزم الأمر سأملي عليك من الذي تختلطين به ومن الذي تبتعدين عنه».

«هل تقول لي أن أبتعد عن جيم؟».

«أقول لك أنك لن تنافقي رجالي وتغريهم بالأفكار العاطفية. هل هذا واضح بما فيه الكفاية؟»

أجابت ستاسي وهي تلكز حصانها ليركض:

«تماماً».

لم يذهب الراكبان الصامتان بعيداً حتى شاهدا راعي البقر هانك وهو يسوق نصف دستة من الماشية. لوح له كورد بيده ثم اتجه بحصانه بعيداً عن حصان ستاسي عائداً عبر الجبل. بينما بقيت ستاسي بجانب راعي البقر. وقال لها:

«سنبقى مع القطيع بعد الظهيرة وسنركب في الجانب الأيمن».

ولمحت جيم عدة مرات بعد الظهيرة. ولكنه لم يشعر بوجودها إلاّ مرة واحدة عندما لوح لها بيده. شعرت ستاسي بالذنب. فربما تسبّبت في مشكلة لراعي البقر الشاب. كانت تأمل ألاّ يعاديها جيم لهذا. بالطبع لم يكن يستطيع أن يجري إليها بمجرد أن يراها. فهو يعمل. ووجدت نفسها تبحث عن كورد هاريس مرتين ولكنها لم تره. وبدلاً من أن ترتاح لعدم وجود عينيه الغامضتين شعرت بالفراغ.

وفي الساعة الرابعة وصل القطيع لمجموعة من أشجار الحور على جانبي مجرى نهر. كان هذا موقع المعسكر الليلي. وقادوا الماشية عبر الماء الضحل ليبيتوا على الجانب الآخر. ونظرت ستاسي بلهفة جزينة للماء الجاري وهي تتبع هانك. يا لها من فرصة لغسل الرمل والقذارة.

وتجمّع كل العمال حول عربة المطبخ حيث القهوة الطازجة. وترجّل هانك وستاسي عند الشاحنات وانضما للآخرين. ففي الصباح التالي سيصل القطيع إلى المراعي الصيفية وتنتهي قيادته في الخريف. وقفت ستاسي هادئة ترشف القهوة وتستمع لادعاءات وشكاوى رعلة البقر المخضرمين. كان العشاء على وشك الاعدادوكانت تودأن تذهب للنهر قبل ذلك. فرغت من قهوتها وأعطت القدح للطاهي. لم ينتبه إليها أحد وهي تمشي نحو أشجار الحور.

مشت ستاسي الهوينا متتبعة مجرى النهر، ووقفت على بعد خمسمائة ياردة من المعسكر في مكان متسع يصلح للاستحمام بعيداً عن المعسكر. وبعيداً عن مكان عبور الماشية، وبالتالي غير موحل وكانت هناك شجرة مناسبة تدلى أحد فروعها لتعلّق عليه ثيابها. فخلعت القبعة البنية في سعادة، وجذبت حلقة المطاط التي تربط شعرها. وتحرّر شعرها من سجنه فسقط مسترسلاً على كتفيها وهي جالسة على حافة الماء تخلع حذاءها. هزت أصابع قدميها في سعادة وهي تنظر إلى

الماء. وقفت ستاسي ونظرت مرة أخيرة حولها لتتأكدمن عدم وجود ضيوف غير مرغوب فيهم قبل أن تخلع بلوزتها وبنطلونها.

نزلت بثيابها الداخلية في الماء فسرت في أوصالها رعشة خفيفة للبرودة غير المتوقعة. ودندنت في مرح وهي تتراقص وتدور على نفسها. وأخذها الاستمتاع بالحمام فلم تسمع وقع الحوافر على الرمل. وقف حصان وراكبه بجانب فرع شجرة الحور حيث علّقت ستاسي ثيابها.

ظلّت ستاسي تدندن في سعادة وهي تمشي في المياه الضحلة نحو الشاطىء. نظرت إلى الشجرة ووقفت في الماء وقد أذهلها ظهور الحصان وصاحبه. وحل محل دهشتها شعور بالخجل لردائهافأخفضت جسدها داخل الماء.

صاحت وحمرة الخجل تكسو وجهها مخاطبة وجه كورد الساخر:

«كان من اللياقة أن تعرّفني بوجودك هنا يا سيد هاريس».

تجاهل نقدها له وأجاب بصوته العميق:

«افتقدتك في المعسكر وجئت أبحث عنك».

حل الغضب محل الاحراج وقالت:

«حسناً. لقد وجدتني فتفضّل بالذهاب حتى أرتدي ثيابي».

قال كورد باسماً وهو يشير إلى مجموعة من الأشجار تحجب الرؤية عنها: «سأنتظرك هناك».

كان السرور بادياً على وجهه وهو يوجّه حصانه ويذهب.

صعدت ستاسي إلى الشاطىء بسرعة ولكن غضبها واستياءها عطلاها. حاولت أن ترتدي ثيابها بسرعة برغم جسدها المبتل. التصقت أكمام بلوزتها بذراعيها المبللتين، ولكنها استطاعت أن تزررها وتدخلها في البنطلون. وارتدت حذاءها بسهولة فوق الجورب المبتل. أخذت قبعتها عن الشجرة ثم جرت إلى حيث ينتظرها كورد.

وقف كورد صامتاً بجانب حصانه وهو يرقب قدومها. كان تسرعها في ارتداء ثيابها وجريها لملاقاته سبباً في حمرة خديها، وتألّقت عيناها من فرط التوتر والحرج. وقفت ستاسي أمام كورد مترددة. بحثت عيناها في وجهه محاولة أن تقرأ تعبيره في يأس.

وقال:

«تعالي. سأمشي معك عائدين إلى المعسكر».

لهثت وهي تمشي معه وهو يقود الحصان في اتجاه المعسكر. لم يدر لها وجهه المتجهم مرة واحدة وهما يسيران في صمت. كان التوتر أكثر من احتمال ستاسي. مرّت بيدها خلال شعرها المبتل في عصبية. قالت ورنّة التحدي في صوتها:

«كنت أشعر بالحرارة والغبار من الركوب».

علّق كورد رافضاً أن يأخذ طعم التحدي:

«بالطبع كانت المياه مغرية. للأمانة شعرت بإغراء الانضمام إليك».

راقب وجهها وعيناه تنظران إلى جدائل شعرها المبتلة حول جبهتها، ثم إلى أنفها المستقيم وتوقّف عند شفتيها المبتلتين. علمت ستاسي أنهما قريبان جداً من المعسكر. وكانت رؤيتها مع كورد تحرجها، ولكنها لم تكن ترى سوى وجه الرجل القوي الواقف إلى جانبها وكتفيه العريضتين. لا بدّ أنه قرأ في نظرتها امارات الارتباك والحيرة وهي تحاول أن تفهم سبب تغير موقفه منها، لأنه ترك ذراعها فجأة وبدأ مرة أخرى يمشي في اتجاه المعسكر.

داعبها كورد قائلاً:

«لم أعرف امرأة للآن، لا تنتهز فرصة للاغتسال».

لسبب ما لم تستطع الاعتراف به. شعرت بالأمان لعودتها للمزاح الساخر. قالت وقد عادت لمشيتها خفتها:

«كيف أستطيع أن أغري رجلاً إذا كانت رائحتي كالبقرة؟»

رافقها كورد وهما يدخلان منطقة المعسكر:

«هذه نقطة جيدة. اذهبي وكلي لقمة يا صغيرتي. سأراك فيما بعد».

شعرت ستاسي بيده تلمس كتفها في خفة وهو يتحرك بعيداً عنها في اتجاه شاحنات الجياد. وسرى الدفء من لمسته وهي تتخيّل وقع يده على كتفها. فمشت في شرود نحو مجموعة الرجال شاعرة أن كل انتباهها مركّز على الرجل الذاهب. وانتظرت بدون وعي قدومه طوال العشاء. وعندما لم يأت شعرت بالاكتئاب. كانت عادة تخشى وجوده وها هي الآن تنتظره. أي نوع من الرجال هذا الذي يستطيع أن يجعلها ترغب في وجودها معه وتكرهه في نفس الوقت؟

أسرع وجود الأشجار حول المعسكر في إظلام المكان بعد غروب الشمس مباشرة، فبدت نيران المعسكر أكثر توهجاً. كان يبدو على جيم أنه يبحث عن أحد وهو واقف يراقب العمال. ثم لمح ستاسي واتجه إلى حيث كانت تجلس بعيداً عن الآخرين فقال لها:

«مرحباً. كنت أبحث عنك».

سألت ستاسي:

«هل كان العمل شاقاً اليوم؟»

جلس جيم بجانبها قائلاً:

«ليس شاقاً جداً. آسف لأنني اضطررت للتخلي عنك اليوم هكذا».

ضحكت ستاسي:

«لم يمسك أحدنا بخناق الآخر، إذا كان هذا يقلقك. لم أقصد أن أتسبب لك في المشاكل يا جيم».

سألها جيم بهدوء:

«إنني معجب بك يا ستاسي، أنت تعلمين هذا أليس كذلك؟»

وعندما لم تجبه أضاف:

«هل أنت مخطوبة؟»

تجنبت ستاسي النظر إليه. كان من الممكن أن تسعد بإعجابه ولكنها ندمت على مجمل الحديث فقالت:

«لا. انا أيضاً معجبة بك يا جيم. إنك صديق طيب جداً».

«هذا ما أشعر به. أرجو أن أراك كثيراً».

«أرجو ذلك. لم يكن لي أبداً كثير من الأصدقاء».

قال بحنان وقد رفع يده الخشنة إلى خدها الناعم:

« ستاسي. يا لك من فتاة. أراهن أنك تستطيعين أن ترفضي رجلاً وتجعليه يشعر بالسعادة رغم ذلك».

٨ ـ صراع الكبرياء

جاءهما صوت آخر بحدة على بعد بضعة أقدام منهما:
«كونورز».

هبا مبتعدين لصرامة لهجة كورد وهو يخطو خارج الظلام وقد أختفى جزء من وجهه، ولكن لم يكن هناك شك في ثورته المكتومة. كان فكه مطبقاً وجبينه مقطباً وضاقت عيناه الداكنتان متوعدتين وهو يحدّق في راعي البقر الشاب.

ولم يعجب ستاسي سلوكه المتحكم فاتهمته بقولها:
«لك موهبة فريدة في الظهور حيث لا يتوقع أحد وجودك».
«هذا واضح».

وتنقّلت نظرة كورد النفّاذة من ستاسي إلى جيم. وسأل:
«حسناً؟»

أجاب جيم وقد برز ذقنه وهو يقابل العينين الحادتين:
«ليس لديّ ما أقول يا سيدي».

شعرت ستاسي بالاستياء يحرقها إذ كانت الطريقة التي يهين بها كورد جيم أمامها لا تغتفر! كان ينتزع كبرياءه أمام عينيها. فإلى أي مدى يظن كورد أن جيم سيحتمل؟ ولماذا يهمه كونها تتحدث مع راعي البقر؟

نظر جيم إلى ستاسي في صمت. وأخيراً حيّاها تحية المساء ومشى بعيداً. استدارت ستاسي لتواجه المزارع الطاغية وهي حانقة وعيناها البنيتان تبرقان وترتعش من الغضب المتزايد الذي يعتمل بداخلها. وصاحت:

«من تظن نفسك بالضبط يا سيد هاريس؟ هل تهتز طرباً وأنت تهين رجلاً أمام امرأة؟ أم أنك تحب أن يعرف الجميع أنك السيد الخطير هنا؟»

قال كورد وما زال صوته شرساً وهو يسيطر على انفعاله:

«لا أرى أن دوافعي تخصك في كثير أو قليل».

«هذا الرد يعكس شخصيتك تماماً، انت تعتبر نفسك القانون ولست مسؤولاً أمام أي شخص. حسناً إنك لا شيء! هل تسمعني... إنك لا شيء! إن جيم أكثر رجولة مما تستطيع أن تكون. وتكون مخطئاً إذا ظننت أنك قد قلّلت من شأنه في عيني. كنت أعتبره صديقاً من قبل، أما الآن فعندما أقارنه بك أجد أنه الرجل الوحيد لي في العالم».

أجاب بحدة وعضلة فكه تختلج من فرط غضبه المتصاعد:

«أخيراً تعترفين. إذاً انت في حاجة إلى رجل، ولكنني حقاً أشك في أنك تستطيعين أن تميزي الرجال إذا قابلت أحدهم».

قالت بحدة وهي تعي تماماً أنها تثير كورد أكثر من احتماله:

«أعرف أنه مهما يكن الأمر فإن الذي أقف أمامه الآن ليس رجلاً».

لم تعد تأبه لغضبه، فقد كانت تستمتع بالحط من شأن هذا الذي يدّعي الكمال .

وكانت هذه هي القشة التي قصمت ظهر البعير، فقد اسود وجهه من الغضب وجذب ذراعي ستاسي بخشونة وقرّبها إليه حتى أنها استطاعت أن ترى العروق النابضة على جانبَ فكه. وقبض على كتفيها بقوة وهي تقاومه بلا جدوى. كان أقوى منها بكثير. حرّك إحدى يديه ليحيط بخصرها وأمسك بالأخرى بشعرها البني الطويل لاوياً رأسها حتى يرغمها على النظر في وجهه. ونظرت مرتعدة إلى عينيه اللتين أصبح سوادهما فاحماً.

وقال كورد بصوت مبحوح:

«أقسم لك أنني لن أسمح بأن تتمادي مع رجالي. إذا كنت تبحثين عن مغامرة عاطفية فسأتولى أنا هذا الأمر الآن وفي هذا المكان».

وخفض وجهه ببطء إلى مستوى وجهها كما لو كان يستمتع بخوف ستاسي وهي تدرك أنه سيقبّلها. حاولت ببسالة أن تقاوم مرة أخرى ولكنه منعها بسهولة.

وضيّق قبضته عليها كما لو كان ينوي أن يقضي على كل مقاومتها. وضغط بشفتيه على عنقها في قسوة محاولاً أن يعاقبها ويؤلمها ويهينها. ولكن قربه منها أسرع بدقات قلبها، ولا بدّ أنه سمع هذه الدقات كما كانت تسمعها. عندما ظنّت ستاسي أنه لن يتركهاأبداً خطا كورد بعيداً عنها. وفقدت تولزنها عندما تركها فجأة وسقطت على الأرض مذهولة تحدّق في قوامه الفارع.

وقال كورد وقد عادت البرودة إلى عينيه:

«لا تضيقي الخناق على رجل أبداً. قلت لك مرة من قبل أن تتعلّمي القواعد قبل أن تلعبي اللعبة».

هبّت ستاسي واقفة واندفعت إليه قائلة:

«إنني أحتقرك!»

أمسك برسغيها بسهولة وحملق بلا انفعال في قطرات الدمع المتساقطة على خديها. حاولت أن تركله وتخدشه ولكنه تمكن بسهولة من صد محاولاتها حتى أرهقها المجهود تماماً.

وقاومت الغصة في حلقها فتمتمت أخيراً:

«لقد هزمتني. تستطيع دائماً أن تجبرني على فعل ما تريد، ولكنك لن تستطيع أن تجعلني أشعر حيالك بأي شيء إلا الاحتقار».

لم تظهر في عيني كورد وهو ينظر إلى ستاسي أية علامة للوم النفس. بل وقف صامتاً يبحث في وجهها عن شيء لم تعرفه وهو يترك يديها المحبوستين في يديه، قائلاً:

«أعلم ذلك تماماً. هيّا بنا، فمن الأفضل أن ننضم للآخرين».

«أهذا كل ما عندك لتقوله؟ ألا تعتذر؟ إذا كانت هذه هي الطريقة التي تتعامل بها مع النساء فاستطيع أن أرى لماذا هجرتك خطيبتك».

تحجّر وجه كورد عندما سمع كلماتها. ونفذت عيناه الداكنتان إلى أعماقها. فأدركت أنها تعدّت على شيء لا يخصها. فوقفت ستاسي في مكانها كالمخدرة، كانت الدموع على وجهها ومع ذلك وقفت في كبرياء.

أجاب بصوت بارد وخشن:

«لا أنوي أن أعتذر عن تصرفاتي، ولا أعلم ما الذي سمعته عن ليديا وعني،

ولكن مهما يكن فهو ليس من شأنك. اعتبري ما حدث الليلة درساً كان يجب عليك أن تتعلميه منذ وقت طويل. إنك لست فتاة بلا جاذبية. ومن حسن حظك أنني لم أقع تحت تأثير سحرك وإلا لاختلفت نتيجة ما حدث الليلة. فأنني أعلم لحسن الحظ من أنت بالضبط وأعرف الحيل الرخيصة التي تستعملها مثيلاتك لارضاء رغبتهن الانانية في إثارة الاهتمام والاعجاب».

وامتلأ كلامه بالسخرية وهو يقول:

«لقد انتهى الموضوع».

لم تستطع ستاسي الكلام. نظرت إلى وجهه وقد أثار الاحتقار المرسوم عليه نفورها.

ومن فرط ارتباكها لم تقاومه وهو يأخذ بذراعها ويساعدها على العودة إلى نار المعسكر. وتعثرت عدة مرات على الأرض غير المستوية ولكنه لم يتردد في خطواته. ولم ينظر في اتجاهها. فلم يكن هناك ما يشير إلى أنه يعترف بوجودها سوى يده الموضوعة على ذراعها.

وعندما وصلا إلى المعسكر تركها واستمر في سيره إلى الدائرة بدونها. وحمدت ستاسي ربها لابتعاده عنها، ودخلت في فراشها راجية ألا يحادثها أحد أو يرى في وهج النار آثار البكاء في عينيها. وأخذت تشهق بالبكاء في صمت وهي تزحف تحت الأغطية. ولعنته لرأيه الذي ليس له ما ما يبرره فيها ثم استقرت داخل بطانيتها بحثاً عن الدفء، ولكن ظلت في عقلها وقلبها ذكرى ذراعيه القويتين الدافئتين وقسوة وحرارة قبلته. فمسحت شفتيها بظهر يدها ولكن بلا جدوى. وبصمت أطبق النعاس على جسدها المنهك.

سطعت شمس الصباح متألقة على ستاسي وهي تركب الحصان الصغير الذي ركبته في اليوم الأول. ولم تجتذبها المناظر الريفية المحيطة بها وهي تسير بجانب القطيع.

وفي أحلام الليلة الماضية عاشت مرة أخرى أحداث الأمس، ولكن في هذه المرة كان عناق كورد مليئاً بالعاطفة. وقد ردت عليه بنفس اللهفة. كان الحلم أكثر إثارة من الحقيقة. وبعد ذلك تعلّقت به يدفعها يأسها وخوفها من أن يرفضها. وشعرت أنها قد خانت نفسها في هذا الحلم بطريقة أو بأخرى. لقد كانت تكره

كورد هاريس وكل ما يمثله. كان شعورها بالخجل والذنب للقبلة الـوهمية أضعاف شعورها بالمهانة للقبلة الحقيقية.

واستيقظت من أفكارها على وقع خطوات حوافر تقترب منها. نظرت فرأت جيم كونورز يمتطي جواداً راكضاً. لوّح بيده ووقف بجانب هانك، وتبادلا بضع كلمات فتساءلت ستاسي عما إذا كانت هي موضوع الحديث واحمرّت وجنتاها حرجاً. لو كان اليوم مثل الأيام الماضية لانضمت إليهما ولكنها خشيت أن تواجههما اليوم فتبدو على وجهها أحداث الليلة الماضية. وبعد بضع دقائق جاءها هانك وقال:

«سنصل إلى المرعى بعد ساعة. قال السيد لجيم هذا الصباح أن عليك أن تعودي لبيت المزرعة بمجرد أن نصل إلى المراعي الصيفية».

وكانت ستاسي تخشى لقاء كورد هاريس مرة أخرى فسألت:

«لماذا؟ ألم يذكر السبب؟»

أجاب هانك وعلى وجهه نظرة فاحصة:

«لا. سيكون أحد العمال هناك ومعه سيارة بيك آب وستركبين معه، ويريد السيد منك أن تذهبي إلى مكتبه بمجرد وصولك. لقد حدثت بينك وبين السيد كورد مشادة أخرى مساء أمس، أليس كذلك؟».

بدأت ستاسي تنكر ولكنها كانت تعلم أنها لن تستطيع أن تخدع راعي البقر اليقظ فأومأت بالايجاب.

هز رأسه باسماً وهو يقول:

«إنكما لا تتفقان أبداً. قال جيم أنه فاجأكما مساء أمس».

وعلّقت ستاسي بمرارة قائلة:

«أعتقد أنه قد ثار على جيم هذا الصباح؟»

ابتسم الرجل المخضرم وهو يرقب وجه ستاسي ليرى رد فعلها وقال:

«توقّع جيم أن يثور عليه السيد ولكنه لم ينطق بكلمة عن الموضوع. بل إنه عهد إلى جيم برئاسة إحدى مجموعات ترقيم الماشية».

ظهرت الدهشة على وجهها وهي تقول:

«هل فعل ذلك؟»

ثم قالت في نفسها ربما كانت هذه طريقته في الاعتذار.

«أعتقد أنك تتصوّرين أنني رجل كهل يثرثر، ولكن هل تحبين جيم أو شيئاً من هذا القبيل؟»

«لا. إننا صديقان. لقد كان يعرف أبي أو قابله في محاضرة».

«هذا حسن».

قالت بفضول:

«حسناً. لماذا؟»

«إنه ليس مناسباً لك. إنك تحتاجين شخصاً أقوى منه ليكبح جماحك. إن النار مع النار تصنع وهجاً أكبر دائماً».

ضحكت قائلة:

«لم أكن أعلم أنك تمزج جمع رأسين في الحلال بالفلسفة يا هانك. قل لي هل في ذهنك رجل معين؟»

«نعم ولكن لن أقول. ستعرفين قريباً جداً».

لكز حصانه وأضاف رافعاً صوته فوق الجلبة:

«يستحسن أن نعود إلى العمل».

رافقته ستاسي وهي تضحك وقد زالت عنها كآبة الصباح في صحبة راعي البقر الحكيم. وعندما طاردا آخر الماشية الشاردة أشار هانك نحو سيارة بيك آب منتظرة، ففهمت ستاسي أنها ستعود إلى بيت المزرعة فيها.

وصلت بحصانها إلى شاحنة الجياد وترجلت. وحاولت تفادي الجياد وراكبيها واتجهت نحو السيارة. ففتح لها السائق الباب وأشار لها بالدخول. تبادلت ستاسي معه بعض النكات ولكن توقعها لقاء كورد بعد حادثة الليلة البارحة جعلها تصمت بالتدريج. وكان هناك في تصوّرها أسباب متعددة لرغبته في الحديث معها، وكانت تتمنى أن يسعدها الحظ فينهي اتفاقهما.

عندما وصلا ساحة البيت لاحظت ستاسي وجود سيارة كاديلاك ذهبية لم ترها من قبل هناك. وبالرغم من أنها لم تكن تعرف سيارات الجيران إلاّ أنها كانت واثقة من أنها لم تر أية سيارة كهذه سابقاً. وملأها إحساس عجيب بالتوجس عندما توقّفت سيارة البيك آب بجانب بوّابة المنزل لتخرج منها.

كانت ستاسي مرهقة وخائفة. تمشي وفي يدها فراشها الملتف وقبعتها، وفي اليد الأخرى سترتها الجلدية. وتمنت وهي تفتح الباب لو أتيحت لها فرصة أن تغتسل وتبدّل ثيابها قبل لقاء كورد هاريس المقيت، ولكنها كانت تعلم أنه ينتظرها فور وصولها. واحترقت من الاستياء وهي تدرك أنه كان يريد أن يلقاها وهي في وضع غير مناسب.كيف يمكنها أن تظهر بمظهر هادىء وتسيطر على نفسها إذا كانت تبدو مثل صبي قذر؟

سمعت أصواتاً في الغرفة التي يعمل بها كورد بينما تجتاز مدخل البيت البارد. ووقفت حائرة أمام الباب المغلق، حاولت أن تتعرف على تلك الأصوات ولكن الباب السميك المصنوع من البلوط منعها من ذلك. ففكّرت: ربما كان مشغولاً ولا يرغب في رؤيتي الآن.

ولكن... لا... من الأفضل أن تنتهي من هذا اللقاء. استسلمت للأمر الواقع ووضعت أشياءها على أريكة خارج الغرفة ونفضت الغبار عن بنطلونها وبلوزتها ثم رتّبت شعرها الطويل، واعتدلت ودقّت الباب.

جاءها الردّ خافتاً:

«ادخل».

فتحت ستاسي الباب ودخلت الغرفة بثقة أكثر مما كانت تشعر، وكان كورد واقفاً أمامها مباشرة بجانب مكتبه. كانت في وقفته بساطة وعدم اكتراث مما زاد من توترها.

قال كورد وهو يلوّح بيده آمراً:

«ادخلي يا آنسة آدامز».

مرّت عيناه الهازئتان على مظهرها المشعث وأضاف:

«أرى أنك وصلت تواً».

أجابت ستاسي مدافعة عن نفسها وهي تواجهه بجرأة:

«فهمت أنك تريد أن تراني على الفور، ولكن يمكنني أن أعود بعد فترة إذا كنت مشغولاً».

قال:

«لا، لن يكون هذا ضرورياً».

تحوّلت نظرته منها إلى الكرسي ذي الظهر العالي أمام مكتبه وقال:
«لن تمانعي في الانتظار بضع دقائق... أليس كذلك؟»

لأول مرة بحثت عينا ستاسي في الغرفة عن صاحب الصوت الثاني الذي سمعته وهي في الخارج. كانت مشغولة بلقاء كورد حتى أنها نسيت مؤقتاً فضولها لمعرفة شخصية صاحب السيارة الكاديلاك. وأثار انتباهها حركة المقعد. لقد أخفى المقعد الجلدي الكبير شاغله إذ كان ظهره لستاسي. أما بعد هذا فقد رأت ستاسي ساقين رشيقتين ترتديان جورباً وحذاء ذا كعب عال. وأظافر مطلية ليد أنثوية. شعرت ستاسي برجفة متوجسة تسري في عروقها. كانت المرأة جميلة بشكل لافت للنظر. وكان شعرها فاحم السواد مرفوعاً في تسريحة إلى أعلى مما أظهر عظام خدودها العالية وبشرتها العاجية. استدارت لستاسي فظهرت عيناها السوداوان بلون شعرها تشعان بوهج مكتوم. كانت أطول من ستاسي بيضع بوصات وأعطت الانطباع بأنها تنظر لها إلى أسفل من خلال أنفها الرشيق. ولمعت العينان السوداوان سروراً عندما رأت المرأة مظهر ستاسي المتسخ.

قالت المرأة الغريبة بصوت موسيقي واضح:
«ستقدِّم كلاً منا للأخرى... أليس كذلك يا كورد؟»
وأجاب وعيناه لا تتركان وجه ستاسي الذي احمرّ خجلاً:
«بالطبع. ليديا. أود أن تلتقي بالآنسة ستاسي آدامز. كانت تعاونني في المزرعة كما تستطيعين أن تري. آنسة آدامز: هذه هي ليديا مارشال صديقة قديمة جداً لي».

تمتمت ستاسي بتحية غير واضحة وأومأت برأسها. فهذه هي ليديا المرأة التي كانت خطيبة كورد! شعرت بأن وجود الاثنين معاً لا بدّ وأن له معنى فنظرت لكورد متسائلة، وبقي على وجهه نفس التعبير الهازىء الذي ألفته في الأسابيع الماضية. وكان هناك معنى آخر للمعة عينيه، عزّتها أول الأمر لمظهرها المشعث. ربما عادت المياه لمجاريها بينهما ولكن ماذا عن زوج ليديا؟ تسابق في ذهنها ألف سؤال وهي تحاول التركيز على الحديث الجاري بين الاثنين. ولكن الشيء الوحيد الذي بقي محفوراً في ذهنها بعد أن تركت ليديا الغرفة هو

الصوت الحريري للمرأة ذات الشعر الداكن.

حدّقت ستاسي في اتجاه الباب المغلق محاولة في يأس أن تطرد مشاعر الخوف البارد التي نمت في داخلها.

كرّر كورد كلامه في نبرة أعلى من قبل قائلاً بصوته العميق:

«قلت. هل تحبين أن تجلسي يا آدامز؟»

همهمت ستاسي وقد أحرجها عدم انتباهها:

«بالطبع، أنا آسفة».

وخطت إلى مقعد من المقاعد ذات الظهر المستقيم بجانب المكتب وجلست. كان كورد جالساً خلف مكتبه يقلب في أوراقه.

«يا لها من امرأة جميلة. ترى هل حضر معها زوجها؟»

أفلتت من ستاسي هذه العبارة قبل أن تدرك ماذا قالت.

قال كورد وفي عينيه شبح ابتسامة، وعلى شفتيه تعبير الرضى والزهو:

«لا. يبدو أن السيدة مارشال تطلب الطلاق».

قالت ستاسي بصوت خافت:

«أوه».

لماذا ضايقها أن يعود هذان الاثنان لبعضهما كما يبدو؟ قال بسرعة:

«والآن لنبدأ في الحديث عن سبب استدعائي لك. من الواضح ان اتفاقنا السابق لن يعطي نتائجه المرجوة، على الأقل ليس كما خطّطت».

جلست متوترة على طرف المقعد وتطوّعت قائلة:

«ما زلت موافقة على أن أكتب لك شيك يغطّي ثمن أي خسارة تسبّبت فيها. أنا أفهم تماماً أنك تريد التخلص مني وأؤكد لك أنني أبادلك نفس الشعور».

قال وهو يرفع حاجباً واحداً:

«أخشى أنك قد اسأت فهمي. ما زلت أعتقد ان عليك أن تعملي حتى تسدّدي دينك. الأمر الواضح هو أنك لا تستطيعين أن تأخذي مكان رجل أو حتى نصف رجل. ولهذا اقترح أن تتوّلي أمر عمل أنسب لطبيعة المرأة».

«لا أفهم تماماً ما الذي ترمي إليه».

«كما ذكرت لك من قبل، إنني أعقد مزاداً كل ربيع أبيع فيه بعض جيادي

المسجّلة على طريقة أهل تكساس. وهذا يعني أن أقيم حفل شواء في الهواء الطلق».

لمعت عينا كورد وهو يراقب أمارات الفهم على وجه ستاسي وأضاف: «أنا واثق أنك تستطيعين تنظيم نشاط هذا العام بخبرتك في الأندية الريفية مما يعطيني فرصة التفرغ للاهتمام بالمزرعة».

سألته ستاسي وهي تتجاهل السخرية المقنعة التي نطق بها كلماته: «كم عدد المدعوين إلى هذا الحفل؟ ومتى سيكون موعده؟»

أجاب وهو يراقب وجهها مفكّراً:

«أعتقد أنه قبل نهاية ذلك اليوم سيكون عدة مئات من الناس قد حضروا. والموعد هو التاسع من يونيو، أي بعد حوالى أربعة أسابيع. إذا كنت تظنين أن العمل كثير عليك!»

قالت ستاسي مدافعة عن نفسها:

«إطلاقاً. ولكني أعترف بفضولي لمعرفة السبب في أنك لم تطلب من السيدة مارشال أن تقوم بدور المضيفة والمنظّمة».

فتر صوته لجرأتها وهو يقول:

«إن أسباب قراري باستخدامك ليست من شأنك، ولكني قلت من قبل إنني أريدك أن تعملي لتخرجي من ورطتك، وهذا هو البديل الوحيد. إن السيدة مارشال تمر بمرحلة صعبة لاعادة ترتيب حياتها، ولا يتوقع أحد منها الاشراف والاعداد لجمع بهذا الحجم، خاصة انها تمر حالياً بضغوط عاطفية. ثم إنه من غير اللائق أن تتولىّ ليديا هذه المهمة في هذا الوقت. وأشك في أنك ستفهمين هذا!».

ردّت عليه بحدة وقد آلمتها طريقته البارعة في حماية خطيبته السابقة: «لم أكن أعلم أنك تأبه لآراء الناس الآخرين».

أجاب بصوت بارد كالثلج:

«هذا يتوقف كثيراً على هؤلاء الناس. هناك بعض الناس الذين لا أريد أن تتأثر سمعتهم، وهناك بعض الناس الذين لن يمكثوا هنا كثيراً ولذا فأنا لا أهتم بشأنهم».

قالت ستاسي غاضبة:

«إذا كنت تشير إليّ من طرف خفي، فأنا أفضل أن تتكلّم بصراحة. لقد كوّنت فكرة مضحكة بأنني أغازل كل رجل أقابله. على الأقل إنني لا أتعرّض للضيوف الموجودين في بيتي!»

قال كورد بحدة وصوته ينخفض منذراً بالخطر:

«كنت أظنك أعقل من أن تثيري هذا الموضوع».

واختلجت عضلة فكه منذرة مرة أخرى وأضاف:

«من الأفضل أن ننسى الليلة الماضية. معظم النساء لديهن من الكبرياء ما يمنعهن من إثارته».

أجابت ستاسي بسرعة وهي تقف ثائرة وتقبض بيديها بشدة على ظهر الكرسي:

«انا لست معظم النساء. واضح أنك تريدني أن أنسى الموضوع في غمضة عين».

قال كورد ناظراً إلى قوامها الرشيق:

«بصراحة، لا يهمني إذا كنت تنسين أم لا. إلا إذا كنت تريدين أن أعيد الكرة».

قالت:

«هذا آخر شيء أريده منك!»

احترق وجهها وهي تتذكر استجابتها له في الحلم. قال منهياً الموضوع ومولياً اهتمامه إلى مجموعة من الأوراق أمامه:

«حسناً. ها هي بعض الترتيبات المعدة للمزاد، وعليك أن تستوعبيها جيداً. تستطيعين استخدام هذه الغرفة كمركز لنشاطك. وبما أنني أقوم بمعظم أعمالي المكتبية في المكتب فلن أزعجك، من المحتمل أن يكون هناك بعض التفاصيل التي تودين أن تراجعيها معي، وتستطيعين أن تتصلي بي في هذه الحالة. أعتقد أن هذا هو كل شيء».

تجمّدت الكلمات الغاضبة في حلق ستاسي تحت تأثير صوته الفاتر الذي ينم عن رغبته في انصرافها. ووقفت برهة إلى جانب المقعد ولكنه لم يرفع عينيه عن الأوراق. فاستدارت على عقبيها بسرعة وخطت خارج الغرفة وأقفلت الباب بشدة خلفها. ثم جمعت حاجياتها من الردهة وصعدت الدرج إلى غرفتها حيث ألقت

بحمولتها على الأرض وأخذت تنظر الى وجهها العابس في المرآة.

بعد ذلك بساعة كانت ستاسي تمشي خارجة من الحمام بعد أن اغتسلت وبدّلت ثيابها عندما قابلت كورد في البهو.

قال كورد بسرعة وعيناه الداكنتان الفاترتان تستوعبان مظهرها المنتعش: «لقد نسيت أن أعطيك مفاتيح سيارتك. ستحتاجين لوسيلة انتقال، لذا أمرت أحد رجالي باحضار سيارتك من الكوخ. إنها في الكاراج».

أجابت ستاسي بسخرية:

«كم أنت بعيد النظر!»

أضاف وعيناه تضيقان للهجتها:

«وضعت لك أيضاً آلة كاتبة في الغرفة. أعتقد أن هذا هو كل ما تحتاجين».

قالت:

«أنا واثقة من أن كل شيء على ما يرام».

بدأت تتخطى الرجل الوسيم ولكن ذراعه القوية أسرعت وسدّت الطريق أمامها. برقت عينا ستاسي وهي تنظر إلى وجهه المسود. قال كورد مهدداً: «تستطيعين أن تمسحي هذا التعبير عن وجهك. إنك تحتاجين إلى علقة ساخنة. سيكون لها تأثير السحر على طفلة مدلّلة مثلك».

أجابت بدون أن تجفل أمام نظرته الخارقة:

«العنف هو حلّك لكل شيء... أليس كذلك؟ والآن ابتعد عن طريقي ودعني أمر».

كان داخلها يرتعد وهي تدفعه بعيداً عن طريقها وتنزل الدرج بسرعة. كانت ليديا مارشال تقف أسفل الدرج بجمالها الأسمر وعينيها السوداوين الباردتين كالثلج وهي ترقب ستاسي تمر من أمامها. ولكن الثلج اختفى عندما نزل كورد خلف ستاسي.

قالت ليديا بصوتها المعسول:

«هذا أنت! بدأت أتساءل عما إذا كنت قد نسيتني. لقد أعددت لنا شراباً. أرجو أن أكون قد تذكرت ذوقك في الشراب».

رفرف صوت ليديا خلف ستاسي كما لو كان رداء أحمر مزهواً، ولكنها لم تنتظر لتسمع رد كورد، إذ أسرعت كالعمياء إلى غرفة العمل واستندت إلى

الباب المغلق في انتظار أن تعود ركبتاها المرتعشتان وقلبها الذي يدق بعنف إلى حالتها الطبيعية. لماذا سمحت لكورد أن يثيرها هكذا؟ لِمَ يتصرف نفس التصرف حيالها مرتين؟ مرة كان مداعباً ودوداً عندما وجدها عند النهر، ومرة أخرى كان عنيفاً مهيناً عندما قبّلها بكل هذه القسوة. واليوم تصرف كالسيد الدكتاتور. في نظر ستاسي كان كورد يستحق ليديا مارشال بجمالها اللاتيني البارد وطريقتها المتزلفة التي تثير الاشمئزاز. أوه كم كانت ستاسي تتمنّى وجود كارتر ميلز باتزانه. فقد أتعبها كورد بانفعالاته المتقلّبة.

كانت متعبة واهنة من ركوب الخيل لمدة ثلاثة أيام متواصلة، فمشت إلى خلف المكتب، وجلست على المقعد في اكتئاب، وأخذت تدرس مجموعة الأوراق الموضوعة أمامها. عبرت خاطرها صورة اليدين اللتين لوّحتهما الشمس وهي تقلب في نفس هذه الأوراق. قلبت الأوراق شاردة حتى ردّها إلى انتباهها حجم الحفل بكل تفاصيله.

وروعها ما قرأت، فجلست في المقعد الدائر وأخذت تبحث في الأوراق مرة أخرى. لو لم يكن يناصبها كل هذا العداء لشرحت له أنها لم تعد حفل عشاء لأكثر من اثني عشر شخصاً في حياتها. ما الذي تفعله الآن؟ مرّت في ذاكرتها ابتسامته الساخرة الهازئة وهي تتخيّل أنها تشرح له موقفها.

فكّرت ستاسي كم سيعجبه ذلك. كم سيسعده أن يرى فشلي. حسناً لن يحدث هذا. عليّ أن أعمل أكثر مما ظننت وإذا كنت سعيدة الحظ لن يرى أبداً الأخطاء البسيطة التي ستحدث عفواً.

وبثقة متجدّدة أعادت دراسة الأوراق مرة أخرى وبدأت تعد خطة للعمل.

٩ ـ لمساته كالحروق

أطار الحصان الأحمر عرفه الأصفر في الهواء وصهل غاضباً لليد الحازمة التي تحد من سرعته.

هدّأته ستاسي قائلة:

«اهدأ يا ديابلو».

ولكنه استمر في جر شكيمة اللجام.

فكّرت ستاسي ربما يهدىء من توترها ان انطلقت بالحصان. لقد دفعت ستاسي ضريبة مشادتها مع كورد بعد ظهر ذلك اليوم من صبرها واعصابها. مضى أسبوعان منذ عهد إليها كورد بترتيب احتفالات المزاد، وكان إعداد الأنشطة المختلفة عملاً مرهقاً يستغرق النهار كله. خاصة لمن لم يقم بمثل هذه المهمة من قبل، على الرغم من المعونة التي تلقتها ستاسي من زوجات العمال الدائمين بالمزرعة. كانت ستاسي راضية عن العمل الذي قامت به حتى تلك اللحظة. ولديها شعور بأن كورد راض أيضاً عن عملها. رغم أنها لم تكن تهتم برأيه كما قالت لنفسها. ولكن بعد ظهر ذلك اليوم عندما كانا يستعرضان بعض المراسلات بشأن الاعداد للمزاد سألها كورد عن بروفة المطبعة لقائمة المبيعات. ولم تكن ستاسي تعلم عنها أي شيء واعترفت بذلك.

إنها ما زالت تذكر تعبير وجهه الثائر وهو يسمع كلماتها. وأثارتها ذكرى كلماته اللاذعة. كان في استطاعتها أن تشرح له عدم خبرتها في إعداد مثل هذه الحفلات، ولكن إهانته لها جرحتها في أعماقها مما جعلها تخشى المزيد من

الاستهزاء. إذ كان كورد من القسوة بحيث لا يمكن أن يمتلك، ولو من بعيد، ما يشبه القلب!

كان كورد يتغيب تقريباً كل يوم منذ لقائهما الذي عهد إليها فيه بترتيبات الحفل، وأحياناً كان يجتمع بها أثناء النهار، ولكن حديثهما كان محدداً بموضوع المزاد. ولم تكن ستاسي تعلم ما إذا كان السبب هو وطأة العمل في المزرعة، أم أنه كان يتجنب قضاء أي وقت معها. مرّت ليديا مروراً عابراً عدة مرات بحثاً عنه، وفي بعض الأحيان كانت تتنازل وتسأل ستاسي عن مكان كورد موحية لها بأنه يساعدها في إجراءات طلاقها. وكانت عادة تجده في مكان ما لأن ستاسي كانت تراهما معاً كثيراً من النافذة، وكورد يخفض رأسه ليستمع إلى عبارة هامسة من المرأة ذات الشعر الفاحم بينما تضع هي ذراعها على ذراعه باستئثار. كان من الطبيعي أن تتراجع عن النافذة وهي تشعر بالذنب، ووجهها يحمر خجلاً كما لو كانت ضبطت متلبسة بالتنصت على حديث خاص. وفي أحيان أخرى كانت تراقبهما حتى يختفيا عن نظرها قبل أن تعود إلى عملها وهي تعاني من شعور غريب بالانقباض.

كانت متأكدة أن غياب كورد في المساء بسبب ليديا. ومن الغريب أن ستاسي وجدت نفسها تارة تفتقده، وتارة أخرى تخشى حضوره، ولكنها رفضت أن تخوض في أسباب تقلب عواطفها.

انضم إليها جيم كونورز في عدة أمسيات على الشرفة. وكانا يثرثران وهما يكتشفان اهتمامات كثيرة مشتركة. كانت ستاسي ترتاح لبساطة راعي البقر الشاب بضحكته الحاضرة، وصحبته التي لا تطلب منها شيئاً. وكانت علاقتها به تختلف اختلافاً شاسعاً عن علاقتها العاصفة بكورد هاريس. كانت تشعر بالراحة والطمأنينة مع جيم. لم تكن تقلقها كل كلمة صغيرة تتفوه بها وكيف سيفسرها. كان جو صداقتها المريح الذي يحيط بها عندما تكون مع جيم يذكّرها بطريقة اعتيادها على كارتر ميلز.

كارتر... كان يبدو على بعد أحقاب منها. هل كانت معه حقاً منذ مدة قصيرة؟ كانت آخر رسالة منه كثيرة الكلام ومليئة بالنوادر المسلية عن بعض معارفهما، ولكنها قرأت بين السطور تياراً من القلق عليها لم تستطع ستاسي أن

تتجاهله. كانت تعلم أنه ينتظر منها رداً، رداً لا تستطيع أن تعطيه. وكان من الصعب عليها حتى أن تتذكر شكل كارتر. كل ما تستطيع تذكره هو صورة مشوشة لشعر أصفر قصير وعينين زرقاوين لامعتين. وقد بلغ من عدم وضوح الصورة أنه قد يكون في خيالها صورة جيم وليس كارتر. ربما كان التشابه بين الاثنين هو السبب في انجذابها نحو جيم. ربما كانت أحسن حالاً لو أنها لم تأت إلى هنا. ولكن في هذه الحالة ما كانت لتقع في غرام هذه البلاد الخشنة المتوحشة. حتى في هذه الظروف كانت ستاسي تستمتع بقربها من هذه المناظر الطبيعية. لقد غاب الزحام والضباب وضجيج حركة المرور الذي لا ينتهي، وحل محله الفضاء الشاسع والهواء المنعش ونداءات مخلوقات الله الخافتة.

ألقت ستاسي نظرة على الشمس الغاربة ثم امتطت جوادها المستريح مرة أخرى واتجهت به إلى بيت المزرعة. وكانت تعلم أن عليها العودة قبل مغيب الشمس تماماً.

وصلت ستاسي إلى الاصطبلات بسرعة فنزلت وقادت حصانها الطيّع خلال بوابة السياج إلى منطقة الاصطبلات. أخذت تدندن فرحة فلم تشعر باقتراب هانك المسن.

قال هانك:

«إنك بالتأكيد مرحة للغاية».

أجفلت للصوت المفاجىء ثم قالت مؤنبة وهي تضحك ضحكة مهزوزة:

« هانك! يجب ألا تفعل ذلك! لقد أفزعتني حتى وقف شعري!»

ابتسم قائلاً:

«تبدين سعيدة راضية حتى خيل لي أنه من القسوة افساد هذه الصورة الجميلة».

لمعت عيناها البنيتان وداعبته قائلة:

«كنت أظن أن الأيرلنديين هم الذين قبّلوا حجر المداهنة. يبدو أن لكم حجراً مثله هنا».

أجاب هانك:

«هراء! ليس هناك شيء من الادعاء حين يقول المرء لفتاة جميلة أنها جميلة. لتصدق ما عليها! أن تنظر إلى المرآة، وترى بنفسها».

شعرت بالدفء لمحبة الرجل الكهل الواقف بجانبها. ولأشعة الشمس المتألقة الحانية. وغمرتها رغبة ملحة أن تفرد ذراعيها وتحيط بهذه الأرض الخشنة الموحشة التي أسرتها تماماً. بدلاً من هذا رفعت وجهها للنسيم الرقيق واستنشقت العبير المعطر الذي يحمله وصاحت:

«كم أحب هذه الأرض!»

ثم تنهّدت في ندم:

«سأكره أن أترك كل هذا وارحل».

علّق هانك على كلامها قائلاً:

«ظننت أنك لا تحبين هذا المكان؟»

وأدار رأسه ليخفي وميض عينيه.

«لم أر أي شيء مثل هذا المكان. في بعض الأحيان أجده قاسياً وموحشاً، ولكن يبقى فيه جماله. كلا يا هانك أنا لا أحبه فقط إنني أهيم به».

«إذا كنت تحبين هذا المكان لهذه الدرجة فلماذا تتركينه؟ لم لا تنتقلين إلى مكان بالقرب من هنا؟»

أجابت ستاسي وهي تهزّ شعرها البني هزة رقيقة:

«ليس هذا نفس الشيء».

«ما هو السحر الخاص بهذا المكان في أية حال؟»

أجابت مفسرة في تردّد:

«انه شيء مختلف. الشمس لن تغرب كما تغرب هنا. ولن يكون لون التلال كلونها هنا».

نخر كالحصان قائلاً:

«الشمس تغرب بنفس الطريقة في كل مكان».

ثم استدار لوجهها المغتبط بدون أن يحاول اخفاء لمعة عينيه وأضاف:

«وماذا عن السيد؟»

سألته ستاسي وهي تتصلّب بمجرد ذكر كورد هاريس الغامض:

«ماذا تعني؟»

«أليس هو جزءا من كل هذا؟»

«بالطبع لا! إنه...»

ابتسم هانك وهو يسرع بالكلام قبل أن تنطق ستاسي بالاعتراض: «إنه السبب الوحيد في رغبتك في البقاء هنا. دعك من خداع نفسك بأن سبب وجودك هنا هو ارتباطك بالعمل تعويضاً عما سبّب حصانك من خسائر».

صاحت ستاسي:

«إنه لن يتركني أذهب».

أجاب هانك:

«أنت التي لا تتركين نفسك لتذهبي. واجهي الأمر يا فتاة، إن كل ما يملكه ضدك هو قلبك أنت. إنك تحبينه وأنا أعلم هذا منذ مدة طويلة».

استوعبت كلماته الخشنة وقالت بضعف:

«لا».

«أحسب أنه قد آن أوان المصارحة. إذا كانت لديك أية شجاعة فعليك أن تعترفي بحبك بينك وبين نفسك».

وقفت ستاسي صامتة بعد أن ابتعد هانك. تحب كورد هاريس؟ مستحيل! كيف؟ لقد كان أكثر عجرفة ووقاحة وبغضاً من أي شخص عرفته. إنها تبغضه! تدافعت الذكريات في ذهنها، تذكرت سرعة نبضها عندما يدخل الغرفة، العذاب والألم اللذان تعاني منهما عندما يبتسم ابتسامته الساخرة، حرق جلدها كلما لمسها. وكانت ستاسي تئن وهي تتذكر الشعر الأسود بخصلته التي لا تثبت في مكانها بل تتدلى على جبينه الملوح والعينين الداكنتين اللامعتين اللتين أنذرتاها مرات كثيرة بأنهما ستلتهمانها بنارهما. وعظام الوجنتين المحددتين في رقة وعليهما شبح لحية.

استدار لها الحصان في صبر نافد، فقادته الى حظيرته كالمخدرة وتعثّرت أكثر من مرة وهي في طريقها، وفقدت القدرة على التركيز في أي شيء إلاّ صورة كورد هاريس المحفورة في ذهنها. كانت تحبه! وذلك العذاب الذي يتملكها كلما كان قريباً منها، لم يكن إلاّ لرغبتها في حبه. وسمحت ستاسي لنفسها بأن يغمرها وعيها بهذا الحب وهي تطلق حصانها في حقله. هل كانت عمياء حتى أنها لم تفهم هذا من قبل؟ وامتلأت نفسها بهجة وهي تسرع إلى بيت المزرعة. احمرّت وجنتاها،

وأضاءت عيناها، وغمرت وجهها ابتسامة دافئة لهذا الاكتشاف. وأخذ قلبها يشدو.

ستاسي آدامز تحب كورد هاريس. كانت تريد أن تصرخ بهذه العبارة للعالم أجمع. ثم فتحت باب المنزل الثقيل، وقد انقطعت أنفاسها وجرت إلى البهو الصامت.

أوقفها خلو المكان تماماً. فلم يكن هناك. خرج مع ليديا عصراً بعدما تشاجرت ستاسي معه. اجتاحها شعور جارف بالوحشة. كيف استطاعت أن تنسى ليديا بشعرها الفاحم وبشرتها العاجية؟ لقد عادت السيدة المطلقة بجمالها الأسمر، لكورد، عادت لتتقبل حبه الذي كان قد ألقاه مرة من قبل تحت قدميها. كان يهتم بها هي وليس بستاسي. لقد نسيت شيئاً هاماً في غمرة انفعالها بحبها الذي وجدته تواً، وهو أن كورد يحتقرها، يحتقر كل ما تمثله!

أنبت نفسها، وتقلّص أنفها والنمش الذهبي المنثور عليه خشية أن يبتلعها إشفاقها على نفسها وقالت: تماسكي يا ستاسي آدامز. لم يرب أبوك فتاة متخاذلة. كورد يعتقد أنك فتاة مستهترة بلا ذرة عقل، لا يهمها أحد سوى نفسها. ولكن عليك أن تعرفيه أنه على خطأ قبل فوات الأوان. على الأقل تستطيعين أن تكافحي من أجله. وتستطيعين أن تعطي هذه الساحرة ذات الشعر الفاحم فرصة لسباق معها.

أزاحت عنها أفكار الحزن بعزم. الأهم فالمهم. والأهم الآن هو أن تغتسل من الغبار من أثر ركوب الحصان، وبعد ذلك تبدّل ثيابها للعشاء، سوف ترتدي الليلة ثوب السهرة المصنوع من قماش الجرسيه برسوماته الجريئة باللونين الفيروزي والزمردي. كان إحضارها لهذا الثوب مجرّد نزوة ولكنها الآن سوف تستخدمه.

لمعت عيناها في انتظار الموقعة وهي تخلع ملابسها بسرعة وتقف تحت الدش...

كورد... أخذت تنطق الاسم المحبّب. كان له وقع اسم رجل، وقوة سوط يفرقع عالياً. لقد ربت أرض تكساس الخشنة رجلاً مناسباً ليقهر أرضها القاسية. وتذكّرت قوة يديه وذراعيه الحديديتين وكتفيه العريضتين. لو أنها تستطيع أن تنظر في عينيه وترى فيهما الحب الذي تتمناه لأصبحت الدنيا مكاناً مثالياً.

عندما خرجت من تحت الدش استعادت سحر عواطفها الذي كانت تشعر به من قبل. عاد هذا السحر بمرونة الشباب بثقة تعتمد على الايمان أكثر من اعتمادها

على العقل. وجففت جسدها بسرعة، ثم عادت لغرفتها وهي تتمتم بالغناء في سعادة، وبدأت ترتدي ثيابها باهتمام أكثر من المعتاد.

وعندما فرغت من ارتداء ثيابها وقفت أمام المرآة الكبيرة تنظر إلى صورتها بعين نافذة. أبرزت ألوان ثوبها الزرقاء والخضراء اللون الذهبي في ذراعيها البضتين، كما أبرزت الأطراف الذهبية لشعرها. نظرت نظرة أخيرة لحذائها المصنوع من الساتان وهو يظهر تحت جونلتها الطويلة. غمزت بعينيها إعجاباً بصورتها وتركت الغرفة.

هبطت ستاسي الدرج كالملكة على الرغم من خفقان قلبها، وكانت مديرة المنزل المكسيكية البدينة تعد المائدة في غرفة الطعام. فغابت الثقة التي كانت تبدو على وجهها إلى أعماقها عندما رأت المكان يعد لشخص واحد. كادت أن تسأل ماريا عن موعد عودة كورد للبيت، ولكن كبرياءها أبت عليها أن تنهار لاحتمال عودته في وقت متأخر، وكانت أسئلتها في هذا الشأن في الأمسيات الماضية تقابل برد سلبي، ولم تكن تحتمل أن تسمع مثل هذا الرد الليلة.

ثرثرت ماريا بابتسامتها العريضة المعتادة:

«إن الآنسة تبدو رائعة الجمال الليلة. ربما كنت على موعد مع جيم أليس كذلك؟»

ابتسمت ستاسي وهي تقاوم ارتعاد جسدها وقالت:

«لا!»

وجلست ستاسي بهدوء إلى المائدة الخالية. وحاولت أن تأكل من الطعام الشهي الموضوع أمامها. ولكن انتظارها لكورد لم يترك مكاناً في ذهنها للرغبة في الطعام، على الرغم من محاولتها الشجاعة لتظهر اهتمامها بسلطات الفاكهة واللحوم الباردة، التي بذلت ماريا كل هذا المجهود لاعدادها. وأخيراً، بعد أن تظاهرت بضع دقائق بأكل أحد أطباق الأناناس بدون أن تتذوق أي شيء منه ابتعدت عن المائدة. لم يكن هناك جدوى لبقائها. لقد سرق التوتر والتوجس شهيتها. وكانت منفعلة إلى درجة أفقدتها قدرتها على الأكل. وقفت بعصبية وبدأت تمشي جيئة وذهاباً بجانب المائدة.

سألتها المرأة المكسيكية الواقفة في مدخل غرفة الطعام:

«هل أنت بخير يا آنسة؟»

لم تشأ ستاسي أن تجرح مشاعرها فقالت معتذرة:

«انها وجبة ممتازة، غير أنه ليست لي أية شهية للطعام».

بدا على ماريا أنها قبلت تفسير ستاسي للأمر، وبدأت تحمل الأطباق من المائدة. وراقبتها ستاسي برهة وهي تحاول استجماع شجاعتها لتسأل ماريا عما إذا كانت تعرف مكان كورد. وسألت ماريا:

«ربما وددت أن أحضر لك قهوتك بالخارج في الساحة؟»

تمتمت ستاسي في شرود:

«نعم سيكون هذا لطيفاً».

بدأت تخرج من الغرفة في هدوء ثم وقفت وسألت في صوت غير مبال:

«هل تتوقعين عودة سيد هاريس مبكراً هذا المساء؟»

أجابتها ماريا قبل أن تسرع إلى المطبخ:

«أوه. لا. لقد ذهب إلى عشاء لمربي المواشي، وهو عادة يعود متأخراً منه».

مشت ستاسي مكتئبة من خلال غرفة الطعام إلى الأبواب الزجاجية الكبيرة المؤدية إلى الشرفة. اختفت نظرة الأمل من عينيها وهي تفتح الباب وتقف على الأرض الحجرية.

وتسلّلت الوحشة إلى عظامها، واختنق كل الأمل والثقة التي كانت تتذرّع بها. مشت وهي قلقة واستندت إلى أحد الأعمدة التي تحمل الشرفة إلى أعلى. كافحت في يأس لتدفع الكآبة والتراخي اللذين أحاطا بها، وكانت مياه المستنقع تلمع في غموض في الضوء الخافت، ولكن كان في أعماقها ما ينذر بالشؤم. وحملقت في اتجاه مدافن العائلة فوق الربوة التي تعلو المنزل وقد أخفتها الجدران الحجرية عن النظر. ثم همست في هدوء متوسلة إلى دونا الينا جدة كورد، فربما توسّط شبح المرأة لها إذا علمت مبلغ حب ستاسي لهذه البلاد ولحفيدها. ولكن لا... لا يحدث هذا إلاّ في الأحلام. مجرد أن تتمنى أن يكون كورد بجوارها لا يكفل حضوره.

سمعت ستاسي وقع خطوات على الشرفة وهي شاردة. ظنّت أنها لماريا وهي تحضر لها القهوة، فظلّت مستندة إلى العامود رغبة في ألاّ ترى المكسيكية

دموعها وهي تنذر بالسقوط على خديها.

جاء صوت ستاسي خافتاً على غير العادة وقد اختنق حلقها من الانفعال الذي لم تستطع السيطرة عليه:

«ضعي القهوة على المنضدة يا ماريا. سأصبها لنفسي بعد برهة».

جاءها الرد:

«القهوة موجودة على المنضدة. هل تمانعين في أن أصب لنفسي قدحاً قبل أن تبرد؟»

همست في ضعف:

« كورد!»

خشيت لمدة دقيقة أن تخونها ساقاها، وفي تلك اللحظة القصيرة أسرع إلى جانبها.

أمسكت يداه بكتفيها في خشونة وقال:

«ستاسي. هل أنت بخير؟»

أجابت ستاسي بتهدج:

«نعم. نعم أنا بخير، لقد أخفتني».

ورفضت أن تنظر في عينيه الغامضتين خشية أن يظهر في عينيها الحب المجرد الذي تشعر به:

«ظننت في هذه اللحظة انه سيغمى عليك. انت شاحبة كالشبح. أواثقة أنك على ما يرام؟»

ظل صوته ينم عن الاهتمام ويداه الداكنتان على ذراعيها. وغمرها قربه منها. كانت واعية تماماً لبذلته السوداء الثمينة وبياض قميصه الناصع ووجهه على بوصات قليلة من وجهها حتى أنها لم تستطع النظر إلى أعلى. لم تستطع أن تريه تأثيره عليها. وركزت عينيها على يده اليسرى بأصابعها القوية والشعر الداكن المجعد يظهر من كم قميصه.

قالت بصوت واهن وهي تخشى أن تميل على صدره العريض:

«إنك تؤلمني».

ابتعد عنها كورد فجأة وقال وقد عادت الحدة لصوته:

«أنا آسف. لم انتبه».

نظرت ستاسي إليه ولكن ظلال الليل أخفت عينيه ولم تستطع أن تحدّد رد فعله. هل كان يعتبرها فتاة حمقاء من المدينة تخشى الظلام؟

تحكّمت ستاسي في نفسها بصرامة. إذ يجب ألاّ تتصرف كتلميذة غرة. ألم يكن هذا ما أرادته؟ الفرصة في أن تكون وحدها معه؟ كانت المشكلة أن الحب الذي ملأ قلبها أخرس لسانها، فلم تقو على الكلام. إن من السهل أن تقول له ببساطة أنها تحبه. سارت إلى طرف الشرفة بتمهل لتنضم إليه.

«هل ترغبين في سيكارة؟»

أجابت ستاسي:

«نعم. شكراً».

راقبت يديه الخشنتين المسكتين بعلبة السكائر وهو يأخذ منها سيكارة ذات فلتر ويشعلها لها. أضاء وهج الولاعة المفاجيء ملامح وجه كورد الخشنة مظهراً خطوط الارهاق المحيطة بفمه.

سألته وهي تحاول أن تظهر له مدى اهتمامها:

«لم تتوقع ماريا حضورك مبكراً. قالت لي أنك تحضر عشاء لمربي الماشية. هل تناولت طعامك؟»

أجاب قائلاً بدون تحديد:

«نعم».

سألته ستاسي في محاولة يائسة للاستمرار في الحديث:

«هل تنتهي مثل هذه المناسبات مبكراً مثلما حدث اليوم؟»

«لا، تركتهم وهم مستمرون في الحفل».

كانت إجابته جافة وأعطت ستاسي انطباعاً بأنه لا يريد أن يتحدث إليها. وتمنت ستاسي لو زال الألم عن قلبها وقالت مقترحة:

«أعتقد أنك مرهق بعض الشيء، ربما تفضّل أن أذهب حتى تستطيع أن تسترخي؟»

أجاب كورد وهو يرفع حاجبه في تساؤل:

«إنك حريصة جداً عليّ الليلة. نعم أنا مرهق بعض الشيء، ولكن لا داعي لأن تذهبي. إذا كنت تريدين أن تفيديني تستطيعين أن تصبي لي قدحاً من القهوة».

سارت ستاسي إلى المنضدة بدون أن تجيب. غمرها الضوء من غرفة الطعام وسمعت صوت كورد المنخفض يقول:

«تبدين جذّابة جداً في هذا الثوب».

تمتمت وهي تحاول أن توقف رعشة يدها:

«شكراً لك».

تغيّرت لهجته من اللامبالاة إلى لهجته الساخرة المعتادة:

«هل كنت تنتظرين أحداً الليلة؟»

قالت ستاسي بسرعة:

«لا. فقط أحسست أنني أريد أن أرتدي ثياباً مختلفة عن المعتاد».

وحاولت أن تخفي الحرج الذي سبّبه لها بكلامه. لو كان يعلم أن الشخص الوحيد الذي تنتظره هو كورد نفسه!

مشى كورد إلى دائرة الضوء بالقرب من ستاسي، وأعطته قهوته وهي ترفع عينيها لتلتقيا بعينيه.

قال كورد بسرعة وهو يتحرّك بعيداً عن الضوء حيث لا تستطيع أن ترى تعبير وجهه:

«كنت أرجو أن تكوني مستيقظة».

قالت ستاسي وهي تلعن صوتها المقطع الأنفاس:

«أوه».

«كنت أود أن أعتذر عما بدر مني بعد الظهر. إنك تقومين بعمل ممتاز في إعداد حفل الشواء. كنت قاسياً بدون داع».

بدا كما لو كان متردداً في انتظار إجابة لكلامه، ولكن لم تنطق شفتاها واستمر في الكلام:

«لم يحدث أي ضرر، كان الخطأ خطأي لأني لم أخبرك عن الكتالوغ».

قالت ستاسي بسرعة:

«لا. كان يجب عليّ أن أدرك».

ضحك كورد وأبهجها بمرحه العميق الدافىء واستطرد قائلاً:

«فلننه هذا الحديث قبل أن تنشأ بيننا جمعية للاعجاب المتبادل».

ضحكت ستاسي معه وهي تفكّر: إن هذا هو ما أريد فعلاً أن أفعله.

أحسّت، بدون أن ترى، توتره يهدأ وهو يستدير ليلقي بسيكارته في الظلام. راقبت الجذوة المتوهجة ترسم قوساً في الهواء ثم تستقر في الحديقة. أما هي فقد أطفأت سيكارتها بأصابعها الطويلة في مطفأة قريبة. تحرّك كورد إلى العامود الذي كانت تقف ستاسي بجانبه عندما وصل. ومشت ستاسي بضع خطوات إلى الناحية الأخرى منه وهي تحمل كوب القهوة بحنان بيديها الاثنتين مستمتعة بلمسه الدافىء على راحتيها.

هتفت وهي تنظر إلى السماء المخملية بنجومها المتألقة:

«إن النجوم ظاهرة الليلة بكثرة».

قال الصوت الساخر:

«لا بد أنك رأيت نجوماً من قبل».

فسرّت له ستاسي كلامها وهي متألقة من فرط الحماسة:

«نعم، ولكن عندما كنت أنظر من قبل كنت أرى نجمة أو نجمتين باهتتين، والآن أرى مئات النجوم. كان الجو موحشاً في غياب القمر ووجود نجمتين فقط ولكنه الآن رائع».

استند متكاسلاً إلى العامود وهو يرقب قوامها الرشيق الواقف بجانبه وقال:

«قولي لي شيئاً يا ستاسي. هل أنت حقاً كما تظهرين؟ فتارة أنت فتاة ذات عينين نديتين تفتنها زهرة أو قمر أو أي شيء، وتارة أخرى تكونين فتاة ايرلندية عصبية المزاج تحارب بأظافرها وأسنانها، ثم تكونين فتاة مجتمع متألقة تمثل دوراً كما كنت تبدين قبل ذلك هذه الليلة في ثوبك الأنيق. أي من هذه الشخصيات هي ستاسي الحقيقية».

ضحكت وهي غير راغبة في مواجهة العينين الجلادتين وقالت:

«هل تتفضل الآنسة ستاسي آدامز الحقيقية بالوقوف؟»

ثم أضافت متوخية الصدق بقدر المستطاع:

«أعتقد أنني كل هذه الشخصيات».

حاولت أن تقرأ تعبيرات وجهه، ولكن وجهه كان بين الظلال. وقف هادئاً فترة من الوقت حتى أصبح الصمت فوق احتمال ستاسي، فمشت بعصبية ووضعت

فنجانها بجوار غلاية القهوة.

« ستاسي؟»

نطق كورد بتردد لم تستطع تفسيره.

«نعم».

«هل تأتين هنا دقيقة واحدة؟ أريد أن اسألك شيئاً إذا لم تمانعي».

لو كانت تعلم ما الذي جعل صوته يتغيرّ هكذا ويبدو متردداً؟ دق قلب ستاسي بشدة وهي تتحرّك بجانب الرجل الطويل المستند بإهمال إلى العامود الأبيض. لم يستدر لينظر إليها بل استمر متطاعاً الى الفضاء.

«كيف يمكن لرجل أن يسأل امرأة مشاركته حياته، وقد تعوّدت أن تحصل على كل الأشياء المادية التي تطلبها، وهي جميلة إلى درجة تثير انتباه أي شخص تريده؟»

كانت حدة صوت كورد تنم عن عاطفة مكبوتة مما قطع نياط قلب ستاسي.

تمكّنت بصعوبة أن تكتم شهقة خانقة وفكّرت: يا إلهي. إنه يسألني عن ليديا.

أضاف باستهزاء:

«ما الذي أستطيع أن أقدّمه لها؟ حياة في بلاد لا بد أنها تكرهها؟ حياة رتيبة؟ من بالضبط الذي يعطي ومن الذي يأخذ في مثل هذا الموقف؟»

تلعثمت ستاسي قائلة:

«أنا، أنا أظن أن مجرد أن تعرض عليها حبك يكفي».

واهتزّ جسدها ألماً من النشيج الصامت:

لوى رأسه الداكن بحدة ليرمق وجهها الذي أدارته لتنظر في الظلام حتى تخفي الحزن الذي ملأ عينيها.

سألها في صوت خافت:

«هل يكفيك أنت هذا؟»

ولكنه لم ينتظر منها رداً وأضاف:

«وكيف تعرفين رجلك بشعورك؟»

أجابت ستاسي:

«سيكفيني أن يسألني الرجل المناسب».

واستقرّ على قلبها الهدوء وهي تعلم أنها لن تطلب أبداً أي شيء سوى حبه. استدارت لتواجهه ووجهها يشع صفاء وهي تضيف:

«وإذا كان يحبني سيعرف».

مد يده السمراء وأمسك برسغها وأدناها منه، تلاحقت أنفاسها وعيناه الداكنتان تنفذان في عينيها.

رن صوت كورد بجانب شعرها:

«إذا لم يكن متأكداً كيف تقولين له يا ستاسي؟»

شعرت بيده اليسرى على وسطها وملمسها يحرقها، بينما تركت يده اليمنى رسغها ولمس عنقها الأبيض تحت أذنها. كانت تعلم أن عليها فقط أن ترفع رأسها قليلاً لوجهه ولكنها لم تستطع. بمنتهى الرقة رفع رأسها بإبهامه، ولم تنتقل عينا ستاسي من فمه ...

تصلّبت ستاسي ...

استمرار شغف كورد جعلها تستجيب بانبهار إليه.

نعم ولكن ستاسي؟

ليديا! أفاقت منتفضة. لم يكن كورد يعانقها. بمثل هذه العاطفة. كان يتخيّل أنها ليديا! نزعت نفسها من بين ذراعيه بسرعة ووقفت مرتعبة أمامه وقد أخجلها ما يمكن أن يخمّنه. كان وجهه حانياً أول الأمر وهو ينظر إليها حتى استوعب تعبير وجهها المتألم. في الحال اشتعلت عينا كورد بالنار وهو يستدير فجأة وصدره الضخم يعلو ويهبط بسرعة.

أخذ سيكارة من علبته وأشعلها وهو يقول بخشونة:

«لقد اندفعنا بسبب حديثنا. واضح أن أفكار كل منا كانت بعيدة جداً».

تنفّست ستاسي الصعداء بصوت مسموع، وأدركت أنه هو أيضاً يظن أن تقبلها له بسبب تخيّلها هي أيضاً أنه شخص آخر.

أضاف رافضاً أن ينظر اليها:

«لحسن الحظ أن كلاً منا يعرف شعوره نحو الآخر، لذا لا يوجد أي داع للشعور بالحرج».

أجابت ستاسي بابتسامة مهزوزة:

«لا. حمداً لله. لولا هذا لكان الموقف في غاية الحرج».

ابتعدت عنه خطوة واحدة وهي ترتعد من أثر عناقه، ولكن سحر تلك اللحظة تحطّم لاعتقادها أنها مجرد بديلة لليديا مارشال.

قال كورد بهدوء:

«أعتقد أن الوقت متأخر، وعلى كل منا أن يأوي إلى فراشه».

أجابت ستاسي ممسكة بالخيط الذي بدأه:

«إنني متعبة بعض الشيء. سأراك في الصباح».

مشت من الشرفة إلى غرفة الطعام بكل رباطة الجأش التي استطاعت أن تستجمعها. تبعها كورد فمشى خلفها ببضع خطوات ولكن جرس الهاتف رن وهو يدخل غرفة الطعام.

سمعته ستاسي يرد على الهاتف وهي واقفة في أسفل الدرج.

«مزرعة هاريس. كورد يتكلم، نعم يا ليديا تركت الاجتماع قبل الموعد المحدّد وكنت أنوي الاتصال».

وجرت ستاسي صاعدة الدرج وقد غلبها البكاء. لم تكن تحتمل أن تسمعه يكلّم ليديا. كانت مواجهته في الغد صعبة بما يكفي بدون الحاجة إلى مزيد من آلامها الليلة.

١٠ - رياح الغيرة

مضت ثلاثة أيام بعد تلك الأمسية المشؤومة مع كورد. كانت هناك هالات باهتة حول عينيها البنيتين، وفمها بارز القسمات إلى الأمام كعلامة على الليالي الساهرة والأيام المليئة بالتوتر. وكان كورد يتجاهلها مراراً وتكراراً ولم يعد يراجع معها العمل كل يوم كما كان يفعل من قبل. حتى أنه حدث مرتين أن كانت ستاسي تتمشى ورأته عن بعد فغير من اتجاهه مبتعداً عن طريقها. سحقها شعور حاد بالهزيمة وهي تدرك أنه لا يحتمل حتى أن يراها.

نهضت ستاسي فجأة من مكتبها وهي ترفض السماح للحزن الكائن بداخلها أن يعطلها عن العمل. بقي أسبوع فقط على المزاد وكان أمامها الكثير من العمل. وحمدت الله أن وقتها سيكون مشغولاً بالمزاد حتى لا تفكر كثيراً في مشاكلها الخاصة.

سمعت نقرة خفيفة على الباب، فنادت لمن بالخارج أن يدخل. فتح باب الغرفة السميك واسعاً، ودخلت ليديا مارشال. قالت بصوت جياش:

«أرجو ألا أكون قد قطعت عليك العمل. أليس كذلك؟ فإذا كنت مشغولة جداً فلن أبقى أكثر من دقيقة».

اندهشت ستاسي لهذه الزائرة غير المتوقعة وأجابت بهدوء:

«لا. إطلاقاً. كيف يمكنني أن أعاونك؟»

«لا شيء حقاً. كنت أظن فقط أنه ربما كان لديك وقت لتناول القهوة وحديث سريع».

وافقتها ستاسي قائلة:
«بالطبع».

وهي تتعجب متسائلة عما يمكن أن يتحدثا عنه وأضافت:
«دقيقة واحدة وأطلب من ماريا أن تحضر القهوة. هل تريدين فطيرة أو شيئاً آخر مع القهوة؟»

جاء الرد سريعاً:
«أرجو ألا يضايقك أنني قد طلبت منها بالفعل! إحضارها خشية ألا يكون لديك بعض الفراغ».

وضحكت ضحكة أغاظت ستاسي. فأجابت ستاسي بابتسامة لم تصل إلى عينيها:
«هذا تفكير لطيف منك، فنادراً ما يكون لديّ الوقت لشرب القهوة، وسيكون ذلك تغييراً لطيفاً».

قالت ليديا وهي تقف، بينما دخلت المكسيكية حاملة صينية القهوة:
«هذا ما ظننت. سآخذ هذا يا ماريا. إنني لم أطلب أية فطائر حلوة. هل كنت تريدين شيئاً منها يا ستاسي؟ عليّ أن أراعي قوامي ولذا أرفضها».

وأومأت ستاسي بالرفض فصرفت ليديا المكسيكية بكلمة شكر مقتضبة.

تضايقت ستاسي من طريقة ليديا المتملكة وأخذت فنجان القهوة منها بصعوبة. ثم صاحت ليديا وهي تمسك بحقيبتها:
«كنت قريبة من المطبعة، وتذكّرت أن كورد قد ذكر شيئاً عن احتياجه بروفة الكتالوغ فأحضرته. أرجو ألا تتضايقي. لقد ذكر أنك تعملين كثيراً فوفّرت عليك رحلة للمدينة».

أخذت ستاسي الكتيب وقالت بفتور:
«شكراً، لسوء الحظ عليّ أن أذهب للمدينة لطلبات أخرى. ولكن سيد هاريس سيقدّر لك ذلك قطعاً».

ابتسمت ليديا وأضافت:
«كنت أعلم مبلغ ضيقه من هذا. أرجو ألا يكون قد ضايقك كثيراً فإنني أعلم

كم هو عصبي المزاج أحياناً».

كانت شفتا ليديا تنطقان بألفتها لكورد وهي تؤكد لستاسي مدى صداقتها له. واشتعلت ستاسي غضباً ثم قالت بثبات:

«بالطبع كان متضايقاً مثلي، ولكن كل شيء على ما يرام الآن. كان مجرد سوء فهم».

كانت نظرة ليديا باردة كالثلج وهي تقول:

«يسعدني أن أسمع ذلك. عرضت أن أعاونه ولكن كورد أكد لي أن ذلك غير لائق حالياً. ثم إنه يعتقد أن عملك كاف».

توهّجت وجنتا ستاسي لتشديدها على كلمة كاف. آلمتها معرفة أنها كانت موضوعاً عابراً لحديث من أحاديثهما. كانت ليديا تغطّي كلماتها الباردة بلهجة تشعرها بالاهتمام بها.

قالت ستاسي بهدوء وهي تتعجب لقدرتها على الكلام:

«لقد أشار سيد هاريس إلى أن ظروفك الحالية لا تسمح لك بالقيام بدور فعّال في ترتيبات الحفل».

ضاقت عينا ليديا وابتسمت قائلة:

«إذاً لقد شرح كورد بعض مشاكلنا. إن الكل يعلم بشعور كل منا نحو الآخر على الرغم من غبائي الذي أوقعني في هذه الورطة. إني أتعجب لسذاجتي إذ تركته، فالشمس تطلع هنا كما في الريفيرا، وأؤكد لك يا ستاسي أنها صدمة قاسية أن تكتشفي أنك لست بالنسبة لزوجك أكثر من إحدى ممتلكاته يستعرضها كلوحة لرينوار. لا أعلم كيف احتملت. لولا وعد كورد بانتظاري. أعتقد بأن مستقبلي مضمون بين يدي كورد مرة أخرى، والمسألة مسألة وقت وسيكون هذا رسمياً».

لم تدر ستاسي إذا كانت تستطيع تحمل المزيد من الحديث، ومنعت نفسها بصعوبة من القفز من مكانها في يأس. لماذا تحدثها ليديا في شؤونها؟ تمكّنت ستاسي من أن تقول لها كم هو رائع أن تسير الأمور كما يريدان.

أجابت ليديا ببرود:

«نعم. يسعدني أن تفكّري هكذا، فالكثير من الفتيات في مكانك كن سيعجبن

بكورد، فهو جذّاب».

أجابت ستاسي محاولة أن تخفي انفعالها:

«نادراً ما نتحدث سيد كورد وأنا في أي شيء غير العمل. ويحتاج الأمر لكثير من الخيال إذا فكّرت أن اهتمامه بي يعني غير ذلك».

ابتسمت ليديا براحة. ووضعت فنجانها في الصينية وقالت:

«تفهمين بالطبع كم أكره أن أراك تتألمين، بينما أستطيع أن أجنبك ذلك. أعلم أن كورد يشعر نحوك بالمسؤولية ولا أريدك أن تخطئي تفسير هذا الشعور. والآن يجب ألا أعطّلك عن عملك، وإذا استطعت أن أعاونك في أي شيء أرجو أن تتصلي بي».

قالت ستاسي بابتسامة لتكتم ألمها:

«بالطبع».

كانت تعلم أن ليديا هي آخر إنسانة يمكنها أن تلجأ إليها، وأحسّت أن ليديا تعلم ذلك.

تطلّعت بكآبة في بروفة الكتالوغ، وأخذت تقلّب صفحاته آلياً متذكّرة كلمات ليديا كورد يشعر نحوك بالمسؤولية ولا أريدك أن تخطئي تفسير هذا الشعور. ليتها تستطيع! مسؤولية؟ لقد كان يتصرف دائماً كما لو كانت عبئاً ثقيلاً. إنها لمعجزة أن يفكّر فيها على الاطلاق.

أفاقت من أفكارها وبدأت تقلّب أدراج المكتب بحثاً عن أصل البروفة. وحيث وجدتها ظلّت تراجع قائمة الجياد كل بشجرة عائلته. كان العمل مملاً ولكنه يتطلّب كل تركيزها. وانتفضت ستاسي إذ وجدت وسط الأوراق رسالة كتب أعلاها: ليندس، بيبرس وميلز ـ محامون قانونيون. كادت الكلمات أن تقفز من الصفحة. وصدمت فنظرت إلى الامضاء أسفل الرسالة كارتر ميلز الأب ما الذي تفعله رسالة من سيد .ميلز في مكتب كورد؟ تعجبت ستاسي لهذا فقرأت.

كانت الرسالة موجهة للسيد كورد هاريس مزرعة الدائرة هـ . ماكلاود تكساس وبدأت: عزيزي سيد هاريس.

لقد استأجرت الآنسة ستاسي آدامز ابنة أحد عملائنا كوخاً على أرضك. إني

أخرج عن نطاق سلطتي عندما أكتب لك لأرجو منك أن تهتم بها بدقة.

لقد توفي والدها، وهو صديق حميم، حديثاً تاركاً آنسة آدامز بلا أقارب أحياء. وقد ترك لها والدها دخلاً ضخماً يؤمّنها مادياً طوال عمرها، ولقد دلّلت كثيراً للأسف، وعلى الرغم من اعتراضاتي أصرّت على أن تنفي نفسها حتى تتغلب على حزنها. إنها عنيدة وقوية الارادة. لقد نشأت متنقلة في بلدان العالم ولم تتعود الحياة القاسية في تكساس وهي مستعدة لمواجهة أخطار حياة الوحدة.

لقد رفضت أن تحدّد مدة إقامتها، وسأقدّر لك معاونتك إذا تمكّنت من إقناعها بالعودة. وإذا لم تستطع أرجو أن تقبل أن تكون مسؤولاً عنها، وقد أرفقت برسالتي شيكاً ليغطي أي نفقات قد تتكلّفها...

المخلص

كارتر ميلز الأب

حملقت ستاسي في الامضاء وهمست لا! جفّت دموعها وهي تستوعب الحقيقة البشعة. لقد فسرّت هذه الرسالة الكثير. لماذا بدا كورد معادياً لها في أول يوم ونصحها بالعودة لحياة المدينة التي اعتادتها. لماذا شعر بالمسؤولية عندما سقطت من فوق ديابلو وأصرّ على إقامتها في بيته حتى تشفى. ثم استغل حادثة ديابلو ليبقيها في بيته. ولهذا أيضاً اهتم أكثر من اللازم للتقارب بينها وبين أحد عماله. لقد وضح الأمر الآن. كورد لعب دور الحارس لها منذ جاءت وهذا هو كل ما تعنيه له.

تذكّرت كلمات ليديا مرة أخرى كورد يشعر بالمسؤولية نحوك فكّرت ستاسي: يا إلهي لا بد أنه قال لها أيضاً.

زاد إحساسها بالاهانة. لكم يتمنى كورد أن ترحل! وقفت ستاسي وهي خجلة ومتألمة وتعثّرت في المكتب وهي تبحث عن مخرج من تعاستها. ولم تبك وهي تخرج من باب البيت. كان الألم أكبر من أن تداويه. بضع قطرات من الدمع وشعرت بالدوار وهي تنظر كالمخدرة للمباني والجبال المحيطة.

ولمست ذراع ستاسي يد سمراء بدينة، وجاء صوت مديرة البيت يحمل سمات الاهتمام:

«هل أنت بخير؟»

استدارت ستاسي ببطء وابتسمت في ضعف قائلة:

«نعم، أنا بخير يا ماريا. أحتاج فقط لهواء منعش».

هزّت المكسيكية رأسها وتبعت ستاسي للمنزل قائلة:

«لا يبدو وأنك على ما يرام. ربما تحتاجين للنوم؟»

قالت ستاسي بصبر نافد:

«سأكون بخير. إنني بصحة جيدة ولكن الجو خانق في الغرفة».

عادت ستاسي إلى غرفة العمل وقد هدأها كبرياؤها واستسلامها لقضائها. لو أنها تستطيع الاحتفاظ بسيطرتها على انفعالاتها خلال الأسبوع المتبقي ثم تعلن لكورد عن عودتها للشرق بمجرد انتهاء المزاد؟ عندئذ سوف يتحرّر من مسؤوليته نحوها ويبعدها عن حياته للأبد. فأعادت الرسالة إلى مكانها، وبدأت مرة أخرى في مراجعة الكتالوغ.

وفي المساء رأت ستاسي كورد يتكلّم مع ماريا وهي تنزل الدرج. وكان يرتدي ثياب الخروج مما يدل على نيته في أن يغيب هذه الليلة. فمشت إليه كالمخدرة ثم انتظرت حتى فرغ من حديثه مع ماريا.

وجاءها صوته قاسياً:

«هل أردت أن تتحدثي إليّ؟»

تجاهلت سرعة دقات قلبها وقالت ببرود:

«نعم... إذا كان لديك وقت».

نظر إلى وجهها الشاحب في تساؤل:

«ماذا تريدين؟»

أجابت بهدوء وثبات:

«أردت أن أحيطك علماً بأنني سأعود لنيويورك بمجرد انتهاء المزاد».

رفع حاجبه بحدة وقال:

«هذا قرار مفاجىء. أليس كذلك؟ أفهم من ذلك أنك لا تستأذنينني؟»

«لا».

قال كورد بحدة:

«فهمت، ولم أكن أتوقع أن تستمري هذه المدة الطويلة».

وارتعدت ستاسي من لهجته الباردة.

استيقظت ستاسي في الصباح التالي متأخرة. كانت قد بكت حتى نامت بثيابها، ولكن النوم أعطاها القوة على مواجهة الغد. وبدّلت ثيابها واغتسلت ونزلت لتناول الافطار. شعرت بنداء التلال البعيدة وهي تنظر من النافذة، وبما أن اليوم عطلة قرّرت أن تمضيه على حصانها بين التلال. لم تقو على مواجهة كورد فأرادت أن تتجنبه. وطلبت من ماريا أن تعد لها غداء بارداً، وصعدت لغرفتها لترتدي ملابس الركوب.

بعد بضع دقائق وصلت للاصطبلات حيث استقبلها ديابلو وهو يرقص. لوّحت بيدها محيية هانك الذي كان مشغولاً فلم يتوقف ليحدّثها، الأمر الذي أراحها، فهي تخشى عينيه الحادتين ولم تكن تريد أن تتحدّث عن إحساسها بالهزيمة.

كان ديابلو نشطاً وهي تحاول أن تبطىء من سرعته. كان أربعة أشخاص يمشون عند منعطف الاصطبل، وكان كل انتباه ستاسي مركزاً في الامساك بحصانها والتوجه به إلى البوابة، ولكنها نظرت في اتجاههم نظرة خاطفة. كان اثنان من العمال يمشيان أمام كورد وليديا. وأفلت من كورد سباب مكتوم وهو يدفع العاملين ويجري نحو الفارسة. فخاف الحصان من الحركة المفاجئة فشب وهو يستدير نحو القادم.

قبل أن تنطق ستاسي معترضة كان كورد إلى جانبها ينزلها من الحصان بيد ويمسك بلجام الحصان بالأخرى. أنزلها للأرض بخشونة وأمر أحد العمال أن يمسك بالحصان وصاح غاضباً:

«ماذا كنت تفعلين على هذا الحصان؟»

غضبت ستاسي لمعاملته وأجابت:

«كنت ذاهبة للنزهة. إذا كان هذا من شأنك!»

استشاط كورد غضباً وأمسك برسغها ليقربها منه:

«نعم، إنه من شأني. ألم تكفك سقطة واحدة، أم أنك تفضلين أن تقتلي في المرة القادمة؟»

لمعت عيناها غضباً:

«كانت تلك حادثة. وكانت ستحدث لو كنت على صهوة أي حصان آخر، إن هذا الحصان ملكي وليس من حقك أن...»

قاطعها كورد ببرود وهو يترك رسغها بحركة ساخرة من يده:

«إن لي كل الحق طالما أنني مسؤول عما يحدث لك في هذه المزرعة. ولن تقتربي من هذا الشيطان طالما أنك في هذه المزرعة».

ردّت ستاسي بحدة وقد أزال عنها الغضب خوفها من سيطرة كورد:

«أحمد الله أنني لن أبقى هنا طويلاً. وعليك أن تفكّر في طريقة لابعادي عن الحصان لأنه ملكي وأنوي أن أركبه وقتما أريد!».

لمحت ستاسي عيني ليديا تسخران من تصرفها الطفولي، ولكن ضيقها بدكتاتورية كورد وإحساسه المبالغ فيه بالمسؤولية جعلاها تتجاهل شماتة العينين السوداوين. واقترب من المجموعة رجل طويل القامة يرتدي ثياباً رياضية زرقاء. كانت مشيته مألوفة لها ولكن صوت كورد شد انتباهها.

كان صوته منخفضاً في محاولة للحد من غضبه:

«سأسجنك في البيت إن اضطررت، ولكنك لن تركبي هذا الحصان. هناك جياد أخرى كثيرة يمكنك ركوبها».

قالت ستاسي ساخرة:

«لا شكراً».

واتجهت نحو الحصان الراقص. ولكن الأصوات العالية الغاضبة أثارت الحصان الذي جذب الحبل الذي كان يمسكه العامل وشب ثم هبط بسرعة، ولكن كورد كان سريع التصرف فجذب ستاسي بعيداً عن تهديد الحوافر الغاضبة.

أمسك بكتفيها وتمتم في أذنها:

«إنك أعند امرأة عرفتها في حياتي!»

دق قلب ستاسي لقربها المفاجيء من كورد، وتمنّت لو أنه يعزو انفعالها لنجاتها من الحصان. وكانت نظرته جادة وهو ينظر إلى وجهها الشاحب. ثم زمجر قائلاً:

«لم ألتق في حياتي بشخص يحتاج لعلقة ساخنة أكثر منك».

ثم تركها واستدار للجماعة المنتظرة.

سمع صوت الغريب الضاحك يوافقه قائلاً:

«اسمعوا. اسمعوا...»

وهو يقف بجوار ليديا.

بالطبع كان الصوت الخفيض الفرح مألوفاً لديها. قطعت نشيجها وجرت مجتازة كورد إلى الرجل المنتظر. صاحت قائلة:

« كارتر. كارتر. كم أنا سعيدة لرؤيتك».

وألقت بنفسها بين ذراعي الشاب. وانقطع حديث كورد بسبب هذه التحية غير المتوقعة.

دهش كارتر لحرارة ترحيبها وقال وهو يمسح على رأسها:

«أهلاً يا عزيزتي. لو أني أعلم أنك سترحبين بي هكذا لجئت منذ وقت طويل».

مسحت ستاسي دموعها ونظرت لعينيه الزرقاوين الرقيقتين وقد فقدت سيطرتها على نفسها بسبب مجيء كارتر المفاجيء، بالاضافة إلى انفعالها لمشادتها مع كورد. وفهمت أن كارتر قد فسرّ ترحيبها به تفسيراً خاطئاً، ولكن وجود شخص تستطيع الاعتماد عليه خفّف من توترها. كان وجوده بمثابة ملجأ من عاصفة الانفعالات التي هزّتها لدرجة الانهاك.

قطعت ليديا الصمت بتعليق لاذع قائلة:

«أظن أن كلاً منكما يعرف الآخر».

شعرت ستاسي بالاحراج لترحيبها الحار واحمرّت وجنتاها وهي تقدّم كارتر للجماعة. تجاهلت ابتسامة ليديا المزهوة وحاجبها المقوس وهي تقدّم لها كارتر. مدّت له ليديا يدها الناعمة بأظافرها المطلية، ونظرت إليه بإمعان بينما خطا كورد للأمام لتعرّفه ستاسي بكارتر. كانت عيناه باردتين كالثلج عندما بدأت ستاسي تقدّم له كارتر، ولكن الأخير تدخل وهو يشد على يد هاريس اليمنى بحماسة:

«سيد هاريس. يسعدني أن ألتقي بك. لم أكن أظن أنني سأرى اليوم الذي يرفض فيه أحد أن تركب ستاسي هذا الحصان ويمنعها بالفعل. وأريد أن أقدّم

شكري وشكر أبي على عنايتك بها».

رد كورد رداً لاذعاً:

«لن أخدعك وأقول إنها كانت مهمة سهلة. إن آنسة آدامز فتاة قوية الارادة جداً. هل ستبقى طويلاً؟»

ابتسم كارتر وهو ينظر بحنان لشعرها الكستنائي وقال:

«سأبقى حتى أقنع ستاسي بالعودة معي. وأتمنى أن نعود خطيبين!»

١١ - تصبح على خير يا كورد

كانت ستاسي ترقب كورد من طرف خفي، وهي تشعر أنها في حماية الشاب الواقف بجانبها، ولكن عيني كورد ألهبتاها بنيرانهما عندما سمع ما قاله كارتر.

واندفعت ليديا قائلة:

«أليس هذا رائعاً يا كورد؟»

ورمقت ستاسي بنظرة خبيثة خاطفة، ثم ابتسمت لكورد وأخذت ذراعه وهي تضيف:

«يا لها من نهاية رومانسية».

وافقها كورد قائلاً:

«نعم إنها كذلك!»

ولكن صوته كان أجش كما لو كان يسعى للسيطرة على أعصابه.

ولم يهتم أحد بسماع رد ستاسي على هذا العرض العلني، غير أنها ما كانت لترد في تلك الظروف، ولكنها اغتاظت لأن الجميع كان يسلم بأن ردها هو الايجاب.

وأرادت ستاسي أن تغيرّ الموضوع فسألت:

« كارتر. إنني مسؤولة عن تنظيم المزاد السنوي لبيع الجياد الذي يعقده سيد هاريس. وسيكون يوم السبت القادم. هل تستطيع البقاء حتى ذلك الحين؟».

فأسرعت ليديا بالرد قبل أن يستطيع كارتر الكلام:

«أوه. ستاسي يجب ألا تدعي شيئاً بسيطاً كهذا يعطّلك. أنا واثقة أن كل شيء سيكون على ما يرام إذا حللت أنا محلك. إذ أننا أمام أمر طارىء».

كانت الجملة الأخيرة موجّهة لكورد. وشعرت ستاسي بأن ليديا حريصة على التخلص منها وبأسرع وقت. وتنفّست ستاسي الصعداء عندما سمعت رد كورد الذي أجاب وعيناه الباردتان تتجهان لكارتر كما لو كان يتحداه أن يخالفه:

«لقد فات أوان التغيير. إن موعد المزاد اقترب جداً، وهذا يعني ارتباكاً لا داعي له. كما أنني لا أعتقد أن عودة آنسة آدامز الفورية أمر حيوي لهذه الدرجة».

قال كارتر بسرعة:

«لا. بالطبع لا. بل إن أبي أعطاني مهلة أسبوع لأقنع ستاسي بالعودة معي. وسنعتبرها فترة استجمام قصيرة».

وتبادل المحامي الشاب ابتسامة من يتآمر مع ستاسي، ثم عاد لكورد قائلاً:

«هل يوجد فندق بالمدينة أستطيع الاقامة فيه؟ إنني أريد أن أجد مكاناً أستقر فيه».

وبدأت ليديا كلامها قائلة:

«لا داعي للبقاء في المدينة».

وقاطعها كورد قائلاً:

«تستطيع الاقامة هنا».

ولم يعط كارتر فرصة لاعتراضه المهذّب بأن لوّح بيده قائلاً:

«إن المنزل واسع. واسمح لي بالانصراف فلديّ عمل أقوم به، وأعتقد يا ليديا أنك على موعد للغداء. أليس كذلك؟»

أمسك كورد بذراع ليديا وأبعدها بشدة عن كارتر وستاسي اللذين صمتا. بينما أخذ كارتر ينظر لستاسي. سألها بصوته الرقيق:

«لم تجيبي على سؤالي ولو أنه لم يكن سؤالاً بالضبط أليس كذلك؟ لا تجيبي الآن فإنني سوف أسأله مرة أخرى في ظروف أكثر رومانسية. أما الآن فيمكنك أن تدليني على غرفتي وتقصي عليّ حكايات تكساس التي تعلّمتها».

وضحكت ستاسي بعصبية. وأخذت بيد كارتر واتجها نحو البيت. وقصّت عليه ما مر بها من أحداث منذ وصولها، وهي تصبغ الأحداث بصبغة ضاحكة، ودخلا المبنى الحجري حيث أرشدته إلى غرفة من غرف الضيوف في الناحية المقابلة لغرفتها. واقترحت عليه أن يلقاها بعد نصف ساعة عند مستنقع الاستحمام.

كانت ستاسي تعوم بكسل على ظهرها عندما صعد كارتر لسطح الماء بعد أن غطس. وأخذ الاثنان يسبحان لمدة ساعة ثم صعدا إلى جانب المستنقع سعيدين ومرهقين.

قارنت ستاسي بين قسمات وجه كارتر الناعمة. وبين ملامح كورد الخشنة. وأدركت ستاسي أن كارتر ليس بالشخص الذي لا يقهر كما ظنته من قبل. ولكنهما عادا إلى صداقتهما القديمة بدون أن تستطيع التصريح له بالتغير الذي طرأ عليها.

قالت بهدوء:

«أعلم بأمر الرسالة التي أرسلها والدك للسيد هاريس قبل أن آتي إلى هنا».

ولاحظت أن وجه كارتر احمرّ خجلاً. وقال:

«تفهمين أن أبي كان قلقاً بشأنك. وقد بيّنت الأحداث أنه كان على حق، ولم أكن أعلم شيئاً عن هذا الموضوع إلاّ بعد الحادث الذي وقع لك».

ثم استدار ليرقب ستاسي وهو يسأل:

«ما الذي جعلك تبقين هنا، المزاد؟»

شرحت له ستاسي حادثة ديابلو مع العامل بأقل قدر من التفاصيل، مبيّنة موقف كورد العدائي منها باختصار. وظهر على وجه كارتر تعبير السرور بخبث عندما فرغت من كلامها كأنه يشمت لما لحق بها من إهانة. وضحك قائلاً:

«تصوّري أن تخرجي لمطاردة الأبقار! هذا كثير جداً!»

اغتاظت ستاسي لدعابته وأجابت بسرعة:

«حسناً لم يكن الأمر مضحكاً عندما حدث. ليس لأحد أي خيار عندما يصدر سيد هاريس إنذاره النهائي».

قال كارتر في لهجة أكثر جدية ولو أن عينيه ظلتا تلمعان بخبث:
«أخذت عنه هذا الانطباع بعد ظهر اليوم، ولا أظن أن الصبر أحد خصاله».
أجابت ستاسي بجدية:
«نادراً، وليس لديه أي صبر على الاطلاق عندما يتعلق الأمر بي. وما زلت أعتقد أنه كان سخفاً من والدك أن يكتب هذه الرسالة، خاصة أنه لم يخبرني بها. وكلّما تذكَرت الأشياء البشعة التي تفوّهت بها وفعلتها لظني بأن كورد ليس إلاّ طاغية،متعجرفاً يستمتع بإصدار الأوامر للناس».
«أتعنين أنه ليس كذلك؟»
«لا. أعني...»
تلعثمت وهي تبحث عن الكلمات المناسبة لتفسرّ بها تغير موقفها بدون أن تبوح بإحساسها الحقيقي.
ضحك كارتر ووقف قائلاً:
«لا يهم. لا يهمني من هو وماذا يفعل. لقد استطاع أن يمنعك من ركوب هذا الحصان وحافظ عليك حتى أستطيع أن آخذك معي. لا يهمني حتى أن يكون من أشقياء تكساس. والآن سأبدّل ثيابي قبل أن تحوّلني شمس تكساس إلى سمكة مشوية!»
وفي الليلة التالية، بينما كانت ستاسي تبدّل ثيابها للعشاء كانت تخاف مما سيأتي. فقد كانت تأمل أن تبعد كورد عن تفكيرها في وجود كارتر، غير أن كورد بدّد هذا الأمل بنجاح. فمنذ حديثها القصير مع كارتر بالأمس كان كورد دائماً معها. فإن لم يشترك في حديثها فهو موجود في الغرفة المجاورة.
سر كارتر لدعوة العشاء عندما أبلغته بها ستاسي، ولم تترك لها حماسته الفرصة للتراجع. تعجّبت لنفسها فهي تعلم أن قرب كورد منها يسبّب لها ألماً شديداً. فهل تستمرئ عذابها؟ كل يوم يمر كان يقربها من موعد رحيلها. وهكذا تتحوّل كل لمحة من الرجل الممتلىء رجولة إلى ذكرى تعتز بها إلى الأبد وهي تحيا وحيدة.
وهبطت ستاسي الدرج رقيقة ورشيقة كالحلم إلى حيث انتظر كارتر وكورد في ثياب السهرة. لم ينطق كارتر ولكن عينيه الزرقاوين لمعتا

بإعجاب أقوى من الكلمات. نظرت بتردد لوجه كورد علّها تجد فيه ما يؤيد إعجاب كارتر، ولكنه لم يبد أي إعجاب بينما رأت اهتزاز عضلة فكه الذي أفسد هدوء وجهه. وندمت ستاسي لبحثها عن إعجابه واتجهت لكارتر متسائلة:

«هل نحن مستعدون؟»

ابتسم كارتر ممسكاً بيدها وقال:

«وراغبون».

كانت السيارة البنية الفاخرة في انتظارهم. جلست ستاسي في المقعد الخلفي وراء السائق، وانتظرت في عصبية أن ينضم إليها كارتر. نظرت في قلق إلى المرآة فالتقت بعيني كورد المحيرتين، وسرعان ما نظرتا بعيداً. ثم صعد المحامي الشاب بجوار ستاسي وانطلق كورد بالسيارة بمهارة. كان الحديث سطحياً في الطريق إلى منزل ليديا وكانت ستاسي لا تغض الطرف عن رأس كورد الجالس أمامها، فلم يكن في استطاعتها إلا أن تتظاهر بالاهتمام بالمناظر الطبيعية.

عندما أوقف كورد السيارة ودخل إلى منزل ليديا قال كارتر:

«إنك هادئة جداً الليلة. هل هناك ما يضايقك؟»

أجابت ستاسي وهي تبتسم امتناناً لاهتمام كارتر بها:

«لا. بالطبع لا. كنت أستمتع بالمناظر الطبيعية، خاصة والشمس على وشك المغيب. إنها تضفي على كل شيء هدوءاً غامضاً».

تمتم كارتر بهزة ساخرة من رأسه:

«يا لها من فتاة! إنها تجلس بجانب رجل سافر، عبر نصف البلاد ليراها، فإذا بها تَعجب بالمناظر الطبيعية».

ضحكت ستاسي إذ كانت تشعر بالارتياح لوجوده وقالت:

«أوه... كارتر! إنك تعلم أنني مسرورة لوجودك هنا».

كان على وجهه تعبير حزين وجاد، وعيناه الزرقاوان ترمقانها بفطنة وهو يقول:

«ولكنني أتساءل عما إذا كنت مسرورة لوجودي أنا بالذات أم لمجرد وجود صديق قديم».

فهمّت بالاعتراض ولكنها توقّفت لقدوم كورد وليديا تمسك بذراعه، كانت على وجهه ابتسامة راضية وهو ينظر للمرأة الأنيقة. وشعرت بالألم يعتصر قلبها ولمعت عيناها من الغيرة. وكان شعر ليديا الفاحم مرسلاً حول رقبتها العاجية مبرزاً فتحة صدر ثوبها البنفسجي.

تبادل الجميع الدعابات، ونظرت ليديا ليد ستاسي ثم إلى كارتر في دلال وقالت:

«ظننت أننا سنحتفل الليلة. أم أنك نسيت أن تحضر الخاتم حتى تصبح الخطبة رسمية؟»

أجاب كارتر إجابة مرحة، لم تسمعها ستاسي التي ركّزت انتباهها على كورد وهو ينظر إليها في المرآة. وتصاعد الدم إلى وجنتيها أمام نظرته الفضولية الهازئة. فلم تشأ أن تشترك في الحديث الجاري بين ليديا وكارتر وحوّلت انتباهها للنظر من النافذة لتخفي الغيرة والألم عن كورد.

ولّما وصلوا بهرت ستاسي بالمبنى المتناثر المكوّن من طابقين والقابع في أحضان أشجار الصنوبر الخضراء. دخلوا إلى منطقة المطعم. نادى الخادم كورد باسمه الأول وأرشد المجموعة بنفسه لمائدة منعزلة.

أجلس كارتر ستاسي على يسار كورد، وهدأت رعشة قلبها المتوتر قليلاً لوجوده، وكانت يدها ثابتة وهي تشرب نخب تكساس الذي اقترحه كارتر. وأضافت ليديا وعيناها على كورد:

«ونخب جمع شمل من تفرقوا».

شعرت ستاسي بالارتياح عندما انتهوا من العشاء، فهي لن تضطر للحديث في القاعة نظراً لوجود الفرقة الموسيقية، وتركت ستاسي المائدة مع كارتر وتبعا الاثنين الأخرين إلى القاعة. وتسمّرت عينا ستاسي على شعر كورد، وكما لو كان يدري بنظرتها استدار ونظر إليها في غموض ثم قال:

«أرجو ألا تخيب الفرقة الموسيقية آمالك. إن أغلب أعضائها مكسيكيون، وستجدين للموسيقى طابعاً لاتينياً غريباً يختلف عن النغمات التي تعودت عليها».

وأجفلت ستاسي في قرارة نفسها عند سماعها كلمات كورد بما تحمله من

نقد خفيّ. لم تكن هناك جدوى من معارضته فقد كان رأيه فيها سيئاً بالفعل. فلم تجبه وتبعتهما في صحبة كارتر إلى المائدة. وبعد أن طلبوا مشروباتهم طلب منها كارتر أن تراقصه، فوافقت على الفور وقد أسعدها أن تبتعد عن صحبة كورد وليديا المقلقة. وعزفت القيثارات الثلاث أغنية قديمة على إيقاع الطبول الرقيق، وعادت لستاسي ثقتها وهي تخطو مع خطوات كارتر التي اعتادتها.

وسألها كارتر فجأة وعيناه ترقبان وجهها بإمعان:

«ماذا بك الليلة؟ عندي شعور بأنك خائفة أو تخفين شيئاً».

أقلقتها صراحته المفاجئة ففاتتها خطوة وصعدت إلى حلقها مئات الاعتراضات ولكن كارتر استمر قبل أن تتكلّم:

«لا أظن أني أريد منك إجابة. أعتقد أنك ستكذبين أو تخفين بعض الحقائق. وفي أي من الحالتين سيكون الجرح مؤلماً... ستاسي إذا أردت أن تصارحيني سأكون بجانبك مهما كانت الظروف».

امتلأت عيناها بدموع البؤس وبدأت تتكلّم:

« كارتر. إنني...»

همس قائلاً:

«صه... لن نتكلم الآن. ربما فيا بعد عندما نكون بمفردنا».

وانتهت الأغنية وعزفت الفرقة موسيقى أكثر سرعة. واستمرّا في الرقص وعندما عادا للمائدة كانت ابتسامة ستاسي صادقة لعلمها بتعاطف كارتر ومحبته، ولكن لهجة كورد الهازئة وابتسامته الملتوية جعلتا ستاسي تتوتّر وزاد من ألمها بريق الانتصار في عيني ليديا، وازدادت الغصة في حلقها كلما راقبت كورد وهو يرقص مع ذات الشعر الأسود، وقرب نهاية الامسية طلب كارتر ليديا للرقص تاركاً ستاسي وحدها مع كورد.

علّقت ستاسي وهي تحاول ألاّ تبدي اهتمامها:

«إنهما يرقصان رقصاً رائعاً معاً».

نظر إليها كورد بابتسامة لم تستطع ستاسي أن تفسّرها وقال:

«أتشعرين بالغيرة؟ إن ليديا امرأة جميلة جداً».

أجابت ستاسي وصوتها يرتعد، فقد شعرت بالغيرة ولكن لسبب آخر غير ما ظن كورد:

«لا. بالطبع لا».

وقف كورد وقال برقة:

«هل نرقص؟»

بالطبع سترفض. لماذا تعذب نفسها بالرقص معه وهو يحب امرأة أخرى؟ ما الذي تجنيه سوى تعب القلب؟ ولكنها لم تعترض بكلمة ووجدت نفسها ترقص معه. لن تستطيع الانسحاب الآن. وتوهج وجهها سعادة ودق قلبها غبطة وهو ينظر إليها. ولم يهمها في تلك اللحظة إن كان يرقص معها من باب الشفقة أم المجاملة. وضغطت بيدها على يده وضمّها إليه وعيناه تبتسمان لها في رقة. رقصت ستاسي في صمت وقد تجاهلت الأغنية التي تعزف والراقصين حولها وكل شيء، إلاّ قرب كورد منها.

وانتهت الرقصة فاقترح كورد العودة، ووافقت ستاسي وقد مزّقتها الانفعالات التي خشيت أن تظهر بسبب قرب كورد وحبها اليائس.

وفي طريق العودة كان الجميع صامتين. كان كارتر هادئاً على غير العادة في الماضي. كانا يقضيان الساعات معاً بدون أن يتكلما، ولكن هذه المرة كان القلق يشوب صمته كما لو كان يصارع لحل مشكلة عويصة. أما كورد فكانت إجاباته على أسئلة ليديا قصيرة حتى أنها هي الأخرى صمتت. وتنفّست ستاسي الصعداء عندما وصلت السيارة للمزرعة وفرّت إلى غرفتها.

وفي الصباح التالي عاد كارتر لطبيعته المرحة ودعابته. وتطوّع بمعاونة ستاسي في ترتيبات المزاد فأخذ يذهب إلى المدينة لقضاء بعض الحاجات ويراجع قائمة الجياد الصغيرة مع هانك. وعموماً كان يتولىّ عنها الأعمال التي تستغرق وقتاً طويلاً، أما كورد فقد عاد إلى التغيب عن البيت وكان يتجنب كارتر وستاسي في اليومين الأخيرين. إلاّ أنه تناول العشاء معهما يوم الاثنين ثم تركهما بعد العشاء مباشرة بدون أن يفصح عن وجهته، غير أن ستاسي لمحت في المساء ضوءاً في نافذة المكتب. أما ليديا فلم تأت، مما أدهش ستاسي فقد كانت دائمة التواجد في المزرعة منذ عودتها.

نزعت ستاسي الورقة من الآلة الكاتبة وركّزت أفكارها على عملها. وطوال الصباح كانت مشغولة بالرد على طلبات راغبي المنشور الخاص بالمزاد. وكان هذا آخر المكاتبات. وأضافته إلى بقية الرسائل انتظاراً لعودة كارتر من الاصطبل. ربما وجدت الوقت لشرب فنجان من القهوة قبل أن تلتقي بزوجات عمال المزرعة لمراجعة تفاصيل مهامهن أثناء وليمة الشواء.

اتّجهت ستاسي إلى المطبخ فوجدت ماريا في الطريق تحمل صينية عليها فنجان قهوة ساخن وفطيرة.

ابتسمت ستاسي قائلة:

«إنك منقذة، كنت على وشك الذهاب للمطبخ لصنع فنجان قهوة».

عبّرت ماريا عن سرورها ثم قالت:

«هل ستنضم إليك السنيورا ليديا؟»

قالت في حيرة:

« ليديا؟»

«نعم. لقد وصلت في سيارتها فظننت أنها ستشرب القهوة أيضاً».

بدأت ستاسي: •

«لا أعلم».

وقطع حديثها صوت الباب الخارجي يفتح ثم يغلق، ودخلت ليديا غرفة الطعام بينما كانت ماريا تغادرها وابتسمت قائلة:

«صباح الخير يا ستاسي يسعدني أنك هنا، كنت أرجو أن أتحدّث معك اليوم غير أني خشيت أن تكوني مشغولة بمزاد يوم السبت».

لم تكن ستاسي حريصة على دردشة أخرى مع ليديا فقالت:

«سأضطرّ للعودة للعمل بعد بضع دقائق».

وجلست ليديا برشاقة أمام ستاسي وهي تسوّي ثيابها الأنيقة ثم قالت:

«لا أرى خاتم الخطوبة، لا بد أنك وضعت حداً لقلق الشاب المسكين».

اغتاظت ستاسي لتدخل ليديا فيما ليس من شأنها فقالت ببرود:

«إذا كنت تقصدين كارتر فقد كنت مشغولة، ولا داعي للعجلة، أليس كذلك؟»

«لو كنت مكانك لما تركته يبتعد عني».

«هذا هو وجه الاختلاف، فأنت لست أنا».

وارتجفت عينا ليديا الباردتان منذرتين بالشر عند سماعها كلمات ستاسي. واستطردت وهي تبدي اهتمامها قائلة:

«هذا صحيح ولكنني أرى الموقف بوضوح أكثر منك».

تضايقت ستاسي لاهتمام ليديا المزيف وقالت:

«لماذا لا تدخلين في الموضوع؟ نستطيع أن نتكلّم في حلقات مفرغة طوال النهار. ولكن لحسن الحظ لدي أعمال أفضّل أن أقوم بها.».

دهشت ليديا لجرأة ستاسي غير المتوقعة، ووقفت ثم استدارت برأسها ذي الجدائل اللامعة نحو ستاسي وقالت في صوت ساخر:

«إنك على حق. لا يوجد بيننا حب مفقود فلماذا التظاهر؟ إن وجهة نظري واضحة حقاً وهي ألا تؤجلي الرد على كارتر أملاً في أن يأتي كورد بعرض أفضل لأنه لن يفعل. أتظنين أن كورد أعمى حتى أنه لا يفهم أنك واقعة في غرامه؟»

وقفت ستاسي لتقابل تحدّي المرأة الأكبر سناً وأجابت:

«هل تخافين من بعض المنافسة، أم أن تأثيرك على كورد ضعيف حتى أنك لا تستطيعين المغامرة؟»

صاحت ليديا:

«لا تجعلي من نفسك أضحوكة! إن المرأة الأكثر نضجاً تعرف الفرق بين الحب والشفقة. كنت مكتئبة طوال أمسية الأحد ثم توهجت مثل شجرة عيد الميلاد بمجرد أن رقص معك كورد. ألا تفهمين أنه يشفق عليك؟ وأن شعوره المبالغ فيه بالمسؤولية يجبره على مثل هذه التصرفات؟ لا أعلم أين كبرياؤك أو إذا كنت قد تجاوزت مرحلة المراهقة أم لا؟ ولكن في الحالتين لقد أثر وجودك على خططي أنا وكورد. وعلى الرغم من أن الموضوع يثير السخرية فقد رفض أن يعلن عن حقيقة مشاعره خوفاً من أن يجرحك».

ردّت ستاسي:

«سأقول لك ما قلته لكورد. سأرحل بمجرد انتهاء المزاد. سأعود مع كارتر وأضع حداً لقلقك. وسأخرج من حياتكما إلى الأبد بعد بضعة أيام، وتستطيعين أن تفعلي أنت وكورد ما تريدان. وحتى ذلك الحين أفضّل أن تتركي هذا المنزل

الآن وتبتعدي عن طريقي مستقبلاً».

كان صوت ستاسي يرتعش من الغضب المكبوت ولكن صدق كلمات ليديا جرحها جرحاً عميقاً.

تركت ليديا الغرفة وهي تدق بكعب حذائها في انتصار، وسمعت ستاسي وهي كالمخدرة لهجة ليديا الراضية وهي تحيي كارتر عند دخوله إلى المنزل، ودخل كارتر ورمق ستاسي ولاحظ أنها قابضة يديها في شدة. فقال:

«ماذا حدث؟»

كانت تبدو مثل سندريللا عندما وضعت قدمها في الحذاء الزجاجي ووجدت أنه مقاسها تماماً. فردّت ستاسي برارة غير معهودة:

«حقاً؟ إن لديّ اجتماعاً الآن وعلى مكتبي بريد كثير هل يمكنك أن ترسله اليوم؟»

وأخذت كرّاستها وأسرعت خارج الباب.

وفي المساء التالي ذهبت ستاسي مع كارتر في نزهة على الجياد. وعند عودتهما تحدّثت ستاسي مع كارتر في سعادة، وقد تجدّد نشاطها بعد نزهة الغروب.

قال كارتر عند وصولهما:

«سأذهب لأغسل قذارة تكساس الغالية إذا سمحت. وسألقاك في الشرفة بعد نصف ساعة».

سبقته ستاسي صاعدة إلى غرفتها وهي تبتسم قائلة:

«اتفقنا».

وبعد فترة قصيرة التقت به في الشرفة. كان جالساً يداعب كلبها في شرود وهو ينظر في ظلمة الليل. وقفز كاجون في سعادة عندما رأى سيدته بينما وقف كارتر ليلقاها. وأخذت ستاسي يده الممدودة وجلست إلى جانبه. وابتسم قائلاً:

«لم تستغرقي وقتا طويلاً. ظننت أنني أستطيع أن أشرب شيئاً آخر قبل حضورك».

وأشار إلى صينية تحمل كؤوساً.

وداعبته قائلة:

«على الأقل تركت لي كأساً. إنها ليلة رائعة. ترى أين توجد بقية النجوم؟»
«لو كنت عاشقاً مثالياً لقلت إنها في عينيك».
ضحكت ستاسي معترضة:
«أوه... كارتر!»
وضع يده على ذقنها في حنان، وكان وجهه جاداً وهو يرمقها.
«ليتني أستطيع أن أقولها وأنا أعلم صدقها».
ثم تركها ووقف فجأة. ووضع يديه في جيبه ومشى إلى العامود وحملق في الفضاء. واضطربت ستاسي وهي تعبث بجيوبها. فقد أعادت كلماته الصادقة شعورها باليأس.
كانت في صوته رنة غريبة اتسمت بمرارة لم تعهدها ستاسي وهو يقول:
«هل تعلمين كم خطَطت لهذه الأمسية منذ وصولي؟ ها نحن بمفردنا بدون أن يضايقنا أحد في إطار مثالي، والليل الحالك يعزلنا عن العالم، ونجمتان تنظران لنا في تشجيع، وفتاة جميلة تمتلىء عيناها توقعاً للكلمات التي ستقال. ولكن عينيك لا تمتلئان توقعاً. أليس كذلك؟»
تساقطت الدموع على وجنتيها وهي تخفض رأسها أمام اتهام عينيه. قال كارتر بصوت رتيب:
«كنت أنوي أن أقوم بمهمتي كما يليق، أركع وأقول: ستاسي إنني أحبك وأريدك أن تصبحي زوجتي. سخيف... أليس كذلك؟ إنني أحبك ولكن لي كبريائي. لا أريد أن أمتلك ما لا يخصني. أعتقد أن هناك من كان سيطلبك للزواج على أمل ألا ترفضي، ولكني لا أطلب ذلك لسبب مختلف تماماً. إنني أخشى أن تقبلي ولا أستطيع العيش معك وأنا أعلم أنك تحبين أحد مزارعي تكساس».
اهتز كتفا ستاسي خجلاً مما سبّبته لكارتر من ألم ومرارة. وأفاق كارتر من إشفاقه على نفسه، ونظر للفتاة الصامتة الباكية، ومشى إليها واضعاً يده على رأسها.
اختنق صوته وهو يضمها:
«أوه. ستاسي... لماذا كتب علينا هذا؟»
بكت على صدره قائلة:

« كارتر... كنت أريد أن أصارحك ولكني لم أستطع. لم أستطع أن أجرحك وأنا أعلم كيف يكون هذا الألم».

ابتسم وقد شعر بالارتياح لأنه يخفّف من ألمها:

«سيكون كل شيء على ما يرام. تعلمين ما يقال إن ألم الجرح يستمر فترة وجيزة».

«ما كنت لأقول نعم... ما كنت لأفعل هذا بك...»

أبعدها ومسح وجنتيها بيده قائلاً:

«لا. أعتقد أنني كنت أعلم ذلك. إن معدنك أفضل من هذا».

سألته ستاسي:

«سوف تبقى وتعود بي بعد نهاية الأسبوع؟»

ابتسم كارتر:

«بالطبع. ألا تعلمين يا صغيرتي أنني في خدمتك في أي وقت؟»

اعترفت له وهما يمران خلال الباب الزجاجي:

«لا أعلم ماذا كنت أفعل لولا قدومك في هذا الوقت».

سمعت تنهيدة قلقة بينا خطا كارتر ليفتح الباب. استدارت ستاسي لتنتظره فوجدته واقفاً وانتباهه مركز على بعد أمامها، وتطلّعت إلى حيث كان ينظر فوجدت كورد واقفاً على يمينها وفي يده كتاب وفي الأخرى سيكارة. كانت عيناه ضيقتين وهو ينظر من ستاسي إلى كارتر. ثم أدار رأسه فجأة وأطفأ سيكارته بعصبية.

قال معاكساً:

«إنكما تأويان إلى فراشكما مبكراً يا شباب. أليس كذلك؟»

تمتمت ستاسي وهي تتجه للدرج:

«كان يوماً مفعماً بالأحداث»

«هل تسير ترتيبات مزاد السبت في سلاسة؟»

بدأت ستاسي تتكلّم وقد ضايقها تلميحه بإهمالها للعمل:

«بالطبع. إذا أردت أن تراجعها الآن».

قاطعها كورد وهو يرقب خطوط وجهها:

«لا. لن يكون هذا ضرورياً. سيكون هناك متسع من الوقت في الصباح».

كانت لهجته مقتضبة وتؤذن بالانصراف، وقال كارتر بشيء من السخرية:
«تصبح على خير يا سيد هاريس».

وأسرعت ستاسي أمام عيني المزارع وهما ترمقانها بحدة وقالت:
«نعم، تصبح على خير يا كورد».

تبعهما صوته وهما يخرجان من الغرفة قائلاً:
«تصبحان على خير».

١٢ ـ عينان من حديد

جاء النداء من التل:

«مرحباً».

نظرت ستاسي فرأت كارتر يتجه إليها بساقيه الطويلتين.

أجابت بابتسامة:

«مرحباً بك».

قال كارتر معاتباً:

«كان يجب أن أعرف أنني سأجدك هنا. ألا تعرفين كم الساعة الآن؟ إنك تعملين منذ الثامنة صباحاً».

أجابت ستاسي متجاهلة تأنيبه:

«الساعة الآن السابعة والنصف فقط. وأمامي بعض الأعمال لانهائها قبل الغد، وقد قررت لندا وديان إعداد الموائد الليلة بدلاً من الغد. وفكّرت أن أعاونهما. هل أحضرت الأشياء التي طلبتها سيدة غرايسون من موللي؟»

«وأوصلتها لها أيضاً ولكنها طردتني قبل أن أتذوّق صلصلة الشواء الشهيرة. ماذا بقي لأفعله؟»

نظرت ستاسي إلى الموائد بتوتر وأجابت:

«لا شيء. سيفضح الغد كل أخطائي».

داعبها كارتر:

«أين الفتاة المتحمسة؟ لقد انقضى النهار، دعينا نعدّ مشروباً مثلجاً».

ضحكت ستاسي على الرغم من توترها. كانت محتاجة للراحة وشعرت بالألم عندما تخيّلت ماذا كان سيصبح حالها هذا الأسبوع لو لم يحضر كارتر، ولاحظت الخطوط الجديدة حول شفتيه، ولكن، ظاهرياً، لم يتغيّر موقف كارتر منها، ولم يشر لما حدث في أمسية الأربعاء المشؤوم.

سألها كارتر بهدوء وهو يشد على ذراعها:

«تندمين لاقتراب النهاية؟»

تنهّدت ستاسي:

«لا. سأكون أحسن حالاً بعيداً عن هنا».

وأضافت لنفسها: ومعي ذكرى كورد.

عاد الاثنان إلى الشرفة، وجلست ستاسي بينما دخل كارتر لاحضار المشروبات. نظرت ستاسي حولها في عبوس للمكان الذي كان بيتها في الأسابيع الماضية، ووجدت نفسها تنظر بإمعان للربوة التي تعلو المنزل. وسمعت جرس الهاتف يرن وكارتر يجيبه. فوقفت كالمخدرة ومشت إلى التل والمدفن الذي يعلوه. لم تسمع كارتر يناديها ولم تره وهو يحمل المشروبات في يديه إلى الشرفة.

لم تتوقف حتى وصلت إلى الباب الحديدي للمقابر واتجّهت مباشرة إلى القبر الذي يحمل الاسم الينا تيريزا هاريس... ركعت أمام المقبرة ومدّت يدها تتحسّس الكلمات برقة. تساقطت دمعتان على خديها وهي تحاول أن تجد العزاء عند من أحبهم كورد. وتملّك الحزن والأسى قلبها وهي تستند إلى الحجر الرمادي الصامت.

ورنّ في أذنها صوت كورد، ولكن هذه المرة بدا حقيقياً حتى أنها استدارت لتراه. لا بدّ أن عينيها تخدعانها. فها هو كورد واقف أمامها، لا بدّ أنها تحلم، فقد كان بريق عينيه غريباً. وفجأة شعرت ستاسي بحلول الظلام. نظرت إلى مكان الشمس فوجدت ضوءاً قرمزياً يشير إلى أصيلها. لم تكن تحلم! إذاً فكورد فعلاً هو الذي يقف أمامها. تغيّر تعبير وجهها وهي تقف أمامه، فأعاد ذراعه التي كان قد مدّها إليها إلى جانبه.

سألها كورد وقد بقي شيء من الرقة في صوته وهو يتطلّع إلى نظرة الألم على وجهها:

«ماذا تفعلين هنا؟»

«جئت لكي...»

كادت أن تنطق بالحقيقة ثم نظرت بعصبية إلى الحجر الذي يعلو قبر دونا الينا ثم إلى الحجر الذي بجانبه. وقالت بلا اقتناع:

«مقبرة والدك! تذكّرت والدي وفكّرت أن مجيئي هنا سيقرّبني منه».

لم تعرف ستاسي إذا كان قد قبل تفسيرها. أمسك بذراعها وقادها خارج المدافن بدون أي تعليق. ونظرت ستاسي في وجهه بقلق. لم ينم وجهه عن أفكاره ولم تحتمل صمته فقالت:

«كيف عرفت مكاني؟»

أجاب بسخرية:

«رآك صديقك تتجهين إلى هنا».

قالت بضعف:

«أوه!»

عندما وصلا إلى شرفة بيت المزرعة ترك كورد ذراعها في نفور، وناولها كارتر مشروبها وعيناه تفحصان وجهها الشاحب.

سألها كارتر بهدوء:

«هل أنت بخير؟ أين كنت؟»

أومأت ستاسي بالايجاب رداً على السؤال الأول قبل أن يقاطعها كورد إذ رشف رشفة من كوبه ثم قال باستهزاء:

«كانت تتخذ من مقبرة والدي بديلاً عن مقبرة والدها».

راقب كارتر ستاسي بإمعان رافضاً هذا التفسير، ولكن كورد لم ينته من كلامه واستطرد قائلاً:

«إن الاستسلام للاشفاق على النفس يعتبر ترفاً لا يسمح به في هذه البلاد، على الأقل بالنسبة لمن يعيشون فيها».

نفذت قسوة عينا كورد إلى قلب ستاسي وتصاعد الدم إلى وجهها. أما كورد فاستدار وسار إلى المنطقة الكائنة شمال الاصطبلات حيث تتم الترتيبات لحفل الشواء. وتبعته ستاسي مع كارتر. لم يتكلّم أي منهم. كان كورد يتجاهل وجودها خلفه، ولم ينظر كارتر إليها إلاّ مرة واحدة.

مر ثلاثتهم أمام صف طويل من الموائد إلى حيث أقيمت حفرة طويلة أشعلت فيها النيران. كان هناك رجل يضيف الخشب إلى النار. ابتسمت ستاسي عندما عرفت أنه هانك.

راقبت ترتيبات الشواء المبتكرة باهتمام، وتغلّب فضولها على إحساسها بالتوتر فسألت:

«هل هذه أسرّة قديمة تلك التي تضعون عليها اللحم؟»

أجاب كورد باسماً:

«إنها أسرّة الجيش. إننا نلف أرجل الذبائح بصفائح للاحتفاظ بالحرارة ويتناوب العمال العناية بالنار أثناء الليل وسقي اللحم بالصلصة».

نظرت ستاسي لكميات اللحم الكبيرة وهتفت:

«يا للسماء! إنّ هذا الطعام كثير جداً؟»

قال هانك:

«إن شهيتنا نحن أهل تكساس عارمة. إننا لا نلهو بشطائر صغيرة كأهل الشرق. فإذا جلست هنا وراقبت النار سأنجز أعمالاً أخرى».

ثم أضاف لكارتر:

«تعال معي لتعاونني فلم أعد شاباً كما كنت».

ثم مضى في الظلام. خافت ستاسي إذ فهمت نية هانك في تركها وحدها مع كورد. كانت تعلم أن كارتر ينظر إليها في انتظار أن تقول أنها لا تريده أن يذهب، ولكنها لم تستطع أن تتكلّم فذهب خلف هانك.

قطع كورد الصمت بقوله:

«حسناً. سترحلين بعد يوم. أعتقد أنك تتلهفين على الرحيل».

أجابت ستاسي بهدوء وصدق:

«حقاً لا. لقد استمتعت بوجودي هنا».

فكّر كورد في ردها ثم قال:

«تصوّرت أنك تسعدين بالعودة إلى حيث تنتمين».

تصلّبت لكلماته، وعاد لها غضبها لادعائه بمعرفة ما هو أفضل لها. كظمت غيظها وظلّت تنظر إلى النار.

سألها كورد:

«هل حدّدت وكارتر موعداً للزفاف؟»

أجابت:

«لا. ربما حدّدنا الموعد بعد عودتنا».

فقد أملت عليها كبرياؤها أن تدعه يظن بأنها ستزف إلى كارتر.

«سوف ترسلين لي بطاقة دعوة؟»

أجابت:

«بالطبع. وهل سترسل لي دعوة لزفافك؟»

سأل كورد وهو يقف ببطء:

«زفافي؟»

أجابت بخفة:

«نسيت أنني يجب ألاّ أعرف، ولكن لماذا أردت إخفاءه عني؟ فوجود ليديا المستمر هنا يظهر أن في الأمر أكثر من مجرد الحب القديم».

بدا على وجه كورد تعبير الاهتمام وقال:

«فهمت، أعتقد أن ليديا قالت لك».

أجابت:

«تقريباً».

وقالت لنفسها: كادت أن تكتب ذلك على الحائط

وأضافت لكورد:

«والآن وقد تخلّصت من مسؤوليتك عني، تستطيع أن تذهب في طريقك وأنا في طريقي».

استدار لها مندهشاً فقالت:

«إنني أعلم أيضاً بأمر رسالة والد كارتر».

«والد كارتر؟ وكيف عرفت؟»

«لقد تركت الرسالة في أحد أدراج المكتب. لقد بذلت أقصى جهدك حتى تضعني تحت عينك الحارسة. لسوء الحظ أنك لم تخبرني. إذ لو فعلت ذلك ربما كنا أكثر تفاهماً».

بدا كورد مبتهجاً مما ضايق ستاسي وقال:

«لم يخطر ذلك ببالي. لقد كنت فتاة عنيدة جداً. وإنني أرجو أن ينجح كارتر في محاربة أفكارك المركّزة حول ذاتيتك».

قالت في تحد:

«إن كارتر يفهمني».

ضحك كورد قائلاً:

«بالطبع، ولكن لسوء الحظ أنه ليس أكثر سيطرة عليك».

قالت ستاسي وفي صوتها نبرة حزن:

«لو كان الأمر كذلك لمَا جئت الى هنا، ولَمَا حدث كل هذا».

«هل... لم يكن ليحدث».

ثم صمت.

وأعلن حفيف الأغصان عن عودة هانك وكارتر. سألها كارتر:

«هل أنت مستعدة للعودة؟»

قال كورد وهو يقف ويمد يده لستاسي قبل كارتر:

«فلنعد. سيكون الغد يوماً طويلاً».

غصّت ساحة بيت المزرعة بسيارات من كل نوع. وكان المزاد قد انتهى منذ ساعتين وبدأ رحيل السيارات.

لاحظت ستاسي المائدة التي كانت مكدّسة بالطعام من قبل. لم يتبق إلا القليل من الكميات الضخمة من اللحم والفاصوليا والبطاطا والخبز. فتنفست الصعداء لدقة حسابهم لشهية الضيوف. وبدأت زوجات العمال في تنظيف الموائد

من بقايا الطعام.

سألتها مولي وهي تملأ الأكواب بالشاي المثلّج:

«هل انتهيت من العمل اليوم؟»

فضحكت ستاسي قائلة:

«لقد فصلت من عملي الآن وأمرت بالانضام للهو».

قالت مولي وهي تضع ذراعها في ذراع ستاسي وتبعد بها عن المائدة:

«حسناً. لم يبق إلا الجيران الآن. ستشاهدين حفلاً جيداً من الطراز القديم».

جاء صوت ضاحك من خلفها:

«هاي. أين تأخذين مضيفتي؟»

وقفت ستاسي وقد شحب وجهها للهجة التملّك، وارتجف قلبها عندما وضع يده على كتفها.

صاحت ماري:

« كورد! حان الوقت لتصاحب ضيوفك. لقد قضيت النهار كله مع تلك الجياد».

أجاب باسماً لستاسي:

«أرى أنك أنقذت ستاسي. لقد قمت بعمل رائع يا ستاسي. يؤسفني أنني لم أقل هذا من قبل، ولم أعاونك. غير أنك لم تحتاجي المعاونة».

تلعثمت ستاسي واحمرّ وجهها لثنائه:

«أشكرك، ولكن الجميع ساعدوني، وأنا متأكدة أنهم ستروا الكثير من أخطائي».

قالت مولي:

«إنك في غاية التواضع. فالناس يحبونك من قلوبهم لرقتك و يفعلون أي شيء من أجلك».

دمعت عينا ستاسي لهذه الكلمات وأجابت برقة:

«لقد أشعرتموني كلكم بأنني بين أهلي ولن أنساكم أبداً».

اشتدت قبضة يد كورد على كتف ستاسي فاستدارت لتنظر في وجهه الأسمر، كانت نظرته حائرة متسائلة ثم قال للمرأتين الأخريين بكآبة:

«إن حفل الليلة بمثابة حفل وداع لستاسي، فسترحل في الصباح».

وانهالت عليها الاعتراضات واستولى عليها الأسى، ليتهم يعلمون أنهـا لا ترغب في الرحيل!

وسألتها ماري:

«لماذا ترحلين هكذا سريعاً؟ ظننت أنك ستبقين أسبوعاً آخر».

«إن كارتر مضطرّ للعودة في أول الأسبوع فقرّرنا الذهاب معاً».

وتجاهلت ستاسي البرودة التي سرت في أوصالها عندما رفع كورد يده عن كتفها. ثم أضافت:

«نستطيع أن نتقاسم القيادة ولن تطول رحلتنا».

سألت مولي وهي تنظر إلى كورد في تجهم:

«ستذهبان وحدكما؟»

قال كورد ساخراً:

«إنك تظهرين كبر سنك يا مولي. تذكّري أن هذا الجيل متحرر. وتقاليدنا تعتبر موضة قديمة بالنسبة لهم. عن إذنكم فقد حان الوقت للاندماج مع الضيوف الآخرين».

شعرت ستاسي بالمرارة في كلام كورد على الرغم من لهجته المداعبة، ولكنها كانت ثابتة وهي تواجه المرأتين متجاهلة كورد وهو يتحرك وسط الجموع.

سألتها ماري بخفة وسط صوت القيثارات والكمان:

«هل قرّرت الزواج من كارتر؟»

أجابت بدون تفكير:

«لا».

تمتمت مولي:

«تكلّمنا عنه وها هو».

ثم لامته قائلة:

«ستأخذ فتاتنا المفضلة معك غداً».

أحاط ستاسي بذراعه وقال:

«كيف أنفرد بها إذا لم أفعل؟ ثم إن تغيير المناظر مفيد»
لم تلحظ ستاسي النظرة المتبادلة بين الأم وابنتها وهي تنظر لعيني كارتر.
ابتسم قائلاً:
«سأرقص مع مضيفتنا إذا لم تمانعا».
ورقصا بضع خطوات قبل أن يتكلم:
«ماذا حدث هناك؟ لقد رأيت كورد يمشي قبل وصولي. ماذا قال مما جعلك تبدين هكذا؟»
قالت في شرود وقد رأت كورد يراقبها:
«ليس بسبب ما قال. إن السبب هو أنني لا أريد أن أرحل، وأعلم أن هذا هو الصواب».
« ستاسي. هل أنت متأكدة من أنك تحبينه؟ لو كانت لي أية فرصة...»
وذهب عنه حذره وأمسك بكتفي ستاسي قائلاً:
«تزوّجيني يا عزيزتي. أستطيع أن أسعدك وأنت تعلمين ذلك».
هزّت رأسها وقالت بتردد:
«لا يا كارتر».
جاء صوت كارتر يائساً وملحاً:
«إنه يكبرك كثيراً. كيف تعلمين أنك لا تضعينه مكان الأب الذي فقدته؟ ولو لم أدعك تأتين إلى هنا لكنا زوجين الآن. ألا ترين يا ستاسي أنك تحتاجين مرساة. فلأكن أنا المرساة. قولي أنك ستتزوجينني يا ستاسي... قوليها الآن قبل أن تندمي بقية عمرك».
صاحت ستاسي في محاولة لمقاومة إقناعه:
«لا. لا».
كرّرت الرفض بكل تأكيد وتركت ذراعيه ثم استدارت للجموع الراقصة السعيدة أمامها، وأسرع كارتر قائلاً:
«فكّري يا ستاسي. كيف تتأكدين؟»
سمعا صوت رجل يقول:

«ها أنت يا ستاسي. ألا تعلمين أنه لا يليق بالمضيفة أن تهرب وسط الحفل؟»

عرفت قوام بيل بوكانان السمين وسط دموعها. وقالت في تأثر:

«دكتورا»

سأل بيل وعيناه تبرقان في مرح:

«ألا تمانع في أن أسرقها منك هذه الرقصة يا كارتر؟ انني أكبر من أن أقف في طابور الانتظار وهذا ما سوف يتحتم عليّ فعله عندما يراها الرجال الآخرون».

وأخذها الطبيب الى حيث امتلأ الجو بالموسيقى المرحة، ورقصت معه ستاسي ولكنها نظرت لبرهة الى حيث يقف كارتر. وشد انتباهها وجود رجل طويل يقف على بعد خطوات منه تفصلها بعض الأشجار، فنسيت زميلها في الرقص وقد تملّكها الرعب من أن يكون كورد قد سمع حديثها مع كارتر، مما يفسرّ الغضب المستطير في عيني كورد. وفجأة اتجه اليها كورد وسط الراقصين، فاستدارت ستاسي الى زميلها آملة أن تختفي وسط الراقصين.

كان الوقت متأخراً فقد أمسكت يدا كورد بكتفيها بينما اعتذر للدكتور بوكانان. وأرغم ستاسي على السير معه بين الراقصين، وعندما ابتعدا حاولت ستاسي بدون جدوى أن تفلت من قبضته. صاحت يائسة:

«دعني!»

قال بحدة:

«اسكتي. لقد تكلّمت بما فيه الكفاية».

ظهرت العصبية في عينيها.

«ليس من شأنك ما يحدث بيني وبين كارتر».

«سأقرّر أنا ما الذي من شأني».

واختلجت عضلة فكه وهو يوجّهها نحو البيت. ارتعد صوتها وهي تقول:

«ما الذي تريده مني؟»

قال كورد بحزم:

«أريد إجابات صريحة أولاً».

سارا نحو الشرفة وغضب كورد عندما رأى بعض الضيوف حول مستنقع

الماء، وبدون تردد وجهها نحو الربوة التي تعلو المنزل. نظرت إليه متشككة عندما فهمت أنه يتجه بها نحو المدافن.

فسألته وهي تلهث من سرعة سيرها:

«لماذا نحن ذاهبان هناك؟»

«ربما كان المكان الوحيد الذي لا يوجد به أناس في هذه المزرعة اللعينة».

ووصلا للقمة وجرها خلفه حتى ابتعدا عن عيون الناس، ووقفا عند السور الحديدي. فترك ذراعها وأمسك بكتفيها وسأل:

«لماذا كذبت عليّ وجعلتني أعتقد أنك ستتزوجين كارتر؟»

حاولت أن تتحرّر من قبضته وردّت في أنين:

«ماذا يهم في ذلك؟»

«هل تريدين العودة؟ هل تريدين الرحيل من هنا؟»

لم تجبه فهزّها قائلاً:

«أجيبيني!»

بكت قائلة:

«لا! أرجوك يا كورد لا تفعل!»

«لماذا لا تريدين الرحيل؟»

تلعثمت قائلة:

«لأنني، أوه... كورد أرجوك دعني».

فجأة أصبح صوته حانياً ومستعطفاً:

« ستاسي لا أستطيع... لن أدعك هذه المرة حتى تقولي الحقيقة. يجب أن تقولي الحقيقة هذه المرة».

تساقطت الدموع على خديها وهي تنظر إليه غير مصدقة. وحاولت في يأس أن تصدّق أن لهجته المحبة ليست استهزاء. ضمها إليه وهمس:

«لا تنظري إليّ هكذا حتى تجيبيني. لماذا لا تريدين أن تتركيني؟»

بدأت تتكلّم وقد غمرت خديها حمرة دافئة:

«لأنني. لأنني أحبك. كورد أنا...»

وأسكتها ... فلم تقاومه وهمس لها بكلمات الحب فقالت:

«أوه... كورد... كورد... لا أصدّق. هل تحبني حقاً؟»

اختنق صوته العميق انفعالاً مثلها:

«كنت أحبك منذ الأزل».

اتهمته قائلة:

«لقد عاملتني بقسوة».

كان صوته مبحوحاً وهو يقول:

«لقد أحببتك منذ وجدتك فاقدة للوعي في السهول. فقد عرفت عندئذ أن حياتي لن تساوي شيئاً إذا حدث لك مكروه. وعندما أفقت وقلت إنك سترحلين بعد بضعة أسابيع عرفت أن عليّ أن أجد الطريقة لأبقائك ولجعلك تحبين هذه الأرض كما أحبها أنا».

تمتمت ستاسي:

«إني أحبها يا كورد».

«أعلم هذا، لم أقل لك كم كنت فخوراً بك عندما شاركت الرجال في العمل».

داعبته قائلة:

«هل كنت تغار من جيم؟»

اعترف لها:

«كنت أغار من كل من يقترب منك، حتى رسائل كارتر ضايقتني».

رفعت وجهها له في جدية وقالت:

«كنت تستعرض ليديا وقالت لي إنكما ستتزوجان. وفي تلك الليلة التي كنت فيها معك على الشرفة ظننت أنك تتظاهر بأنني هي».

لمس خدها وقال:

«كم تمنيتك تلك الليلة يا حبيبتي. وعندما نفرت مني...»

«لم أنفر منك أبداً يا كورد...»

ابتسم قائلاً:

«كم نعقّد أمورنا».

«إذا لم تنصت لحديثي مع كارتر وتجبرني على الاعتراف بحبك هل كنت ستدعني أرحل غداً؟»

قال بلوعة:

«لم أكن لأظهر لك أية رحمة يا آنسة آدامز».

ابتسمت ستاسي وهي ترفع وجهها له:

«ولم أكن لأطلب منك الرحمة».

تمتم كورد:

«ولم أكن لأعطيها يا ستاسي. والآن وقد أصبحت لي أخيراً فلن أدعك تذهبين. ولن يكون هناك زفاف أنيق إذ سنتزوج بأقصى سرعة، هل تفهمين؟»

أجابت بحماسة:

«نعم يا كورد... نعم».

واستسلمت مرة أخرى لعناقه واغمضت عينيها.

روائع الأدب الرومانسي

- لا ترحلي
- عذراء في المدينة
- الامواج تحترق
- للعروس الاسيرة
- رجل بلا قلب
- سيدة القصر الجنوبي
- شهر عسل مر
- عيناك بصري
- من اجل حفنة جنيهات
- رجل من نار
- نداء الدم
- ليالي الفجر
- ما اقصر الوقت
- قلب في المحيط
- المجهول الجميل
- الزواج الابيض
- أقدام في الوحل
- قال الزهر آه
- كيف أحيا معك
- غضب العاشق

- آخر الاحلام
- هل تخطيء الانامل
- البحر الى الابد
- الحصار الفضي
- الشبيه
- الكذبه
- الندم
- انت لي
- جراح باردة
- طائر بلا جناح
- عاطفه من ورق
- قطار في الضباب
- قل كلمة واحدة
- مند لا
- تعالي
- السعادة في قفص
- هاربة
- هذيان
- أرياف العذاب
- اللهب والفراشة

روائع الأدب الرومانسي

مزرعة الدموع
الواحة
الضائعون
صرخة البراري
دليلى
دخان
الثأر
وفازت
خذ الحب واذهب
اللؤلؤة
لا تقولى لا
المجهول
بين السكون والعاصفة
رمال فى الاصابع
الشريدة
شاطىء العناق
ذهبى الشعر
تعالى إلى الأدغال
الفخ
فى قبضة الأقدار

دليلة
القيد
الماس اذا التهب
زوجة الهندى
السر الدفين
طال انتظارى
الوجه الآخر للذئب
برج الرياح
الماضى لا يعود
لقاء الغرباء
وردة قابين
عصفور فى اليد
الغيمة اصلها ماء
الهوى يقرع مرة
خيط الرماد
الصقر واليمامة
حتى تموت الشفاه
أصابع القمر
وعاد فى المساء
القرار الصعب

